رأيتُ الأضواء مُطفأة

رحلات ويوميات

رأيتُ الأضواء مُطفأة (رحلات ويوميات)

عاصم الشيدي (كاتب عُماني)

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022

الآن ناشرون وموزعون

الأردن، عمّان

alaan. publish@gmail. com

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

سلطنة عمان، مسقط

omani- writers@hotmail. com

هاتف: 96824346753+ / 96824346754+

المدير العام: د. باسم الزعبي

لوحة الغلاف: Wassily Kandinsky

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

رقم الإيداع في سلطنة عمان: (2021/4052)

ISBN: 978- 99969- 862- 2- 2

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية الأردنية: (2021/12/6838)

عاصم الشيدي

رأيتُ الأضواء مُطفأة

رحلات ويوميات

مقدمة

الصفحات القادمة استكمالٌ لكتاب صدر قبل سنوات بعنوان: «لا أريد لهذه الرحلة أن تنتهي»، وضمَّ بين دفتيه رحلاتٍ في ثماني مدن حول العالم من أبرزها مدينة القدس المحتلة التي زرتُها قبل صدور الكتاب بأشهر قليلة، ولاقى الكتاب حين صدوره عام 2014 استقبالًا جميلًا في عُمان، فاكتشفت حينها أن أدب الرحلات، الذي كان له حضور كبير في الأدب العربي وشهرة عالية، ما زال يحظى بالاهتمام نفسه، وله قرّاؤه الكثر، وما زال قادرًا على صناعة الدهشة رغم المتغيرات التي شهدها العالم جراء الثورة المعلوماتية وتقنيات الاتصال التي تتيح فرص اكتشاف أيّ مكان في العالم، عبر زيارات افتراضية وبتقنيات عالية توفّر مشاهد بصرية ومعلومات تاريخية عن المكان بـ«كبسة زرٍّ» كما يُقال.

وفي هذا الكتاب، أواصل السفر الذي بدأتُه منذ الطفولة عبر رحلات الصيف والشتاء وتأمُّل الطائرات في ليل قرية «شيدة» المُظلم، حيث كانت منازل الخطوة الأولى وصرخاتها المدويّة بين الجبال.

وفي «نهارات الأُنس»، وهو القسم الأول من الكتاب، يحملني الحنين إلى القاهرة، فلا أجد إلا الأضواء المطفأة وأنا أرنو إلى «شقة» الأستاذ محمد حسنين هيكل، ولا أجد إلا بقايا أماكن نجيب محفوظ ومقاهيه التي فَقَدت بريقها. وكان ميدان التحرير هو الآخر قد فقدَ وهجه وتراجع تأثيرُه في سير الحراك السياسي في مصر بعد أن جسّد أيقونة «الخلاص» في العالم.

ومن حارات القاهرة ومساءات «الحسين» إلى منتصف الليل في باريس

التي كانت تعيش حين وصلت إليها احتفاءً عالميًّا بمناسبة مرور مائة عام على صمت مدافع الحرب العالمية الأولى. كان المشهد سرياليًّا بكل ما يعنيه جلوس المستشارة الألمانية بين الرئيسين الفرنسي والأمريكي لحظةَ استذكار تلك الحرب. ومن باريس إلى مدينة قرطبة بحثًا عن ظلال مسجدِها العظيم وبقية من حنين ابن زيدون لولّادة بنت المستكفي بعد أن حولت المدينةُ لهفةَ الأيادي التي لا تلتقي إلى شعارٍ من شعارات الجذب السياحي واستدعاء التاريخ. ومَن يزرْ قرطبة لا يعيَ بزيارة جنّات العريف في مدينة غرناطة، وزيارة قصرها المنيف «الحمراء» الذي ما زال إحدى أعجوبات العهد الأندلسي.

ومن «نهارات الأُنس» إلى «مهنة المتاعب»، وهو عنوان القسم الثاني الذي يتضمن يوميتين: الأولى تحمل تفاصيل سبعة أيام في لندن خلال مهمة عمل تدريبية قادتني وزملاء في المهنة لأكثر من مؤسسة إعلامية رائدة في تلك المدينة الساحرة. أما اليومية الثانية فكانت لصحفي يتابع أخبار كورونا ويواجه عذابات الخوف وعذابات اختيار صور المواكب الجنائزية، حيث ينتشر الموت وتنتشر رائحته في كل مكان.

وفي الختام أشير إلى أن هذه المقالات سبق أن نُشرت في صحيفة «عُمان» ومجلة «العربي» الكويتية، مقرونةً بالصور التي توثّق شيئًا من تفاصيلها وتقول، غالبًا، أكثر مما تقول الكلمة، إلا أن الكتاب يكتفي هنا بنشر المادة دون الصور لأسباب تتعلق بظروف النشر وممكناته.

عاصم الشيدي

القسم الأول

نهارات الأنس

يوميات في القاهرة..
أماكن نجيب محفوظ
والبحث عن هيكل وانطفاء ميدان التحرير *

(1)

عندما زرت القاهرة أول مرة في صيف 2001 لم يكن ميدان التحرير يعني لي شيئا، وربما مررت به كثيرا دون حتى أن أعرف اسمه. لا بد أنني مررت به وأنا ذاهب إلى وسط البلد قادما من الدقي، أو وأنا أبحث عن مكتبة مدبولي ومكتبة الشروق وسور الأزبكية. لم يكن ميدان التحرير في ذلك الوقت يحمل أي رمزية بالنسبة لي على الأقل. كانت أماكن نجيب محفوظ هي الأهم: الحسين وخان الخليلي والسكرية وقصر الشوق وبين القصرين، وزقاق المدق، وحيّ الجمالية. كنت مهووسا بهذه الأماكن الروائية الأثيرة وبالمقاهي التي كان يجلس فيها محفوظ وحرافيشه، أو بالبحث عن بعض أبطاله على اعتبار أنه كان ينقل أجواء رواياته من بعض تفاصيل حياته اليومية. ولذلك بحثت عن مقهى الفيشاوي ومقهى ريش، وفي الفيشاوي سألت عنه لكن كان قد ترك هذا المقهى وغيره لسوء حالته الصحية وتقدمه في العمر. أحد أصدقاء تلك الرحلة عبد العزيز الغافري كان يكرر في كل حين: «هلكتنا بنجيب محفوظ هذا»، لكنه تكرم وذهب معي إلى الحسين بحثا عن محفوظ، وبحثا

* نُشِر في صحيفة «عُمان»، عدد الاثنين 21 أكتوبر 2019.

عن أماكنه، وتكرم وذهب معي مرة أخرى إلى مدينة نصر بحثا عن معرض الكتاب قبل أن نكتشف أن سائق التاكسي قد نصب علينا، فلم يكن الوقت وقت معرض الكتاب، رغم تأكيده أنه يوصل الكثير من الزبائن يوميا للمعرض في مدينة نصر. أذكر أنه طلب مبلغ خمسين جنيها عن تلك التوصيلة، وكان مبلغا محترما في ذلك الوقت. لم أكن حينئذ مشغولا بعد بالصحفي الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل لذلك لم أكن أفكر في لقاءٍ به ولو على سبيل الصدفة. سكنت في ميدان فيني بالدقي في فندق يحمل اسم «إنديانا» وأقدّر الآن أنه على مرمى حجر من العمارة التي بها شقة الأستاذ هيكل، وربما صادفته وأنا أسير في الصباح الباكر أو في المساء لكن لم أكن لأعرفه ولم يكن ضمن اهتماماتي قط في ذلك الوقت. كنت أسير من الفندق باتجاه شارع النيل ثم من شارع النيل باتجاه كوبري 6 أكتوبر، وشقة الأستاذ هيكل تقع في 92 شارع النيل ـ العجوزة ـ الجيزة بالطابق الرابع بجانب فندق شيراتون القاهرة. عندما أتخيل المكان الآن أستطيع الجزم بأنني سرت كثيرا من تحت تلك العمارة. وأنني سكنت في مرات لاحقة في فنادق قريبة جدا منها وتريضت أمامها أنا وأصدقاء كثر في زيارات لاحقة، لا بدّ أنني رأيته في الشارع صدفة دون أن أعرفه. صحيح أن القاهرة بها أكثر من عشرة ملايين شخص لكن هيكل كان هرما بارزا بها وكان يمكن بسهولة رؤيته لمن يبحث عنه بمعرفة.

جرت مياه كثيرة تحت نهر النيل بين عامَيْ 2001 و2011 وأصبح ميدان التحرير أحد أشهر الميادين في العالم، وصار قبلة السياح والسياسيين والصحفيين والحقوقيين من كافة أرجاء المعمورة. وأذكر أنه لم يمض شهر

واحد على أحداث يناير 2011 في مصر حتى قامت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون بزيارة الميدان والتقاط الصور فيه، وفورا تناقلت صورها وكالات الأنباء العالمية. وفي نوفمبر من عام 2012 عندما ذهبت للقاهرة على أمل أن ألتقي بالأستاذ هيكل الذي أصبح حينها مثلا أعلى بالنسبة لي، وحلمًا من أحلامي، وشاغلا من أكبر شواغلي، لم أستطع الانتظار حتى اليوم التالي على الرغم من وصولي الفندق مساء. وضعت حقيبتي في الفندق ومنه مباشرة إلى ميدان التحرير. كانت هذه أول زيارة لي للقاهرة بعد أحداث الميدان. كانت مصر حينها قد بدأت تضيق بحكم محمد مرسي رغم أنه لم يحكم إلا منذ عدة أشهر، وكانت الشوارع مليئة بالاحتجاجات والعين على ميدان التحرير الذي لم يكن قد فقد بريقه. ولم يمض وقت طويل منذ ذلك اليوم حتى عاد الميدان للواجهة مرة أخرى. وفي يونيو 2013 انقلب الميدان على مرسي ضمن أحداث دراماتيكية لا تحدث إلا في العالم العربي. في تلك الزيارة لم أظفر بلقاء الأستاذ وانتهى الأمر بمحادثة هاتفية اعتذر فيها عن اللقاء لكونه خارج القاهرة ويعود إليها بعد أربعة أيام و«قد» نلتقي لو بقيت في القاهرة حتى ذلك الوقت. اعتذرت منه لأنني عائد لمسقط بعد يومين، ومن مسقط إلى مهمة عمل في باريس. لا أعرف الآن كيف فعلت ذلك بالضبط، ولِمَ لَمْ أتمسك ببصيص الأمل في اللقاء، ولكن «قد» تلك أقلقتني كثيرا لأنها لم تحمل لي أملا مؤكدا بلقاء ولو كان عابرا.

وفي سبتمبر 2015 عدت للقاهرة مرة أخرى، وكان قد تأكد أنني سألتقي بالأستاذ هيكل هذه المرة في مكتبه بعد لقاء الصدفة في نوفمبر 2014 في مدينة

باريس، وتلك مصادفة ساقتها لي الأقدار. كان ميدان التحرير قد فقد الكثير من بريقه ولم يعد ذلك المزار الذي يحرص عليه السياح. لذلك عندما مرّ بي الصديق يوسف القعيد في فندق جراند حياة ليأخذني بالتاكسي لمقابلة الأستاذ هيكل صباح يوم السبت 11 سبتمبر. لم ألتفت لميدان التحرير والسيارة تنعطف يسارا فوق كوبري 6 أكتوبر. ليس لأن المقابلة/ الحلم كانت قاب قوسين أو أدنى من التحقق فقط وكانت تشغلني عما عداها، ولكن أيضًا لأن وهج الميدان قد خبا، وإلا كان يمكن أن يكون الميدان الذي تتضح معالمه من شرفة مكتب الأستاذ، مدخلا لحديث عن القاهرة وأحوالها والمتغيرات التي تحدث فيها كل يوم، على الرغم من ذلك كان مفتتح الحديث مع الأستاذ عن الطريقة التي تم بها القبض على وزير الزراعة في ذلك الوقت صلاح هلال، المتهم بالفساد، الذي ألقي القبض عليه في الميدان نفسه وبطريقة بدت غير مقبولة أو مستساغة، وقال الأستاذ إنه اتصل بالرئيس وأبلغه موقفه من الطريقة التي تم بها القبض على الوزير، معتبرا إياها أقرب لطريقة المافيا منها إلى طريقة الدول. ربما حدثت تلك الجفوة مع الميدان لكثرة قراءة ما كان يُكتَب عنه باللغة العربية أو باللغة الإنجليزية، وهو ما كان الصديق أحمد شافعي يتكرم مشكورا ويترجمه للنشر في صحيفة «عُمان» طوال سنوات وهج الميدان وحضوره الإعلامي.

بعد أربع سنوات وفي مطلع شهر سبتمبر من عام 2019 عدت للقاهرة مرة أخرى بعد شوق طويل لزيارتها. لم أكن مهتما كثيرا بميدان التحرير لا في الصباح الباكر، ولا والشمس تنحدر باتجاه الغروب وفق السياقات الرومانسية

لعشاق الأماكن الأثيرة. كان ميدان التحرير بالنسبة لي مثله مثل أي ميدان آخر، صحيح أنني سرت فيه أكثر من مرة، لكن كان الأمر عاديا جدا، لا يكشف عن دهشة ولا عن إعجاب، وأيضا لا يكشف عن قطيعة بسبب مآلات ما بعد 2011 عربيا، رغم أن الصدف لعبت دورا غريبا، فبعد عودتي من القاهرة بدا أن ميدان التحرير يمكن أن يعود لصدارة الأحداث مرة أخرى، إذ نقلت وكالات الأنباء والفضائيات ما يمكن أن يكون إرهاصات حراك شعبي في مصر، إلا أنه سرعان ما انطفأ وعادت الأمور إلى رتابتها والميدان إلى انطفائه.

سكنتُ في فندق بالزمالك. وكان أول مشوار مسائي لي في هذه المدينة زيارة الحسين مع مجموعة الأصدقاء. في الطريق رأيت أضواء مكتب الأستاذ هيكل مطفأة، كان المشهد مؤلما جدا بالنسبة لي، وفي الحقيقة كان قلبي يعتصرني منذ اليوم الذي قررت فيه السفر لمصر، وكنت أعرف يقينا أنْ لا أمل لي على الإطلاق هذه المرة في رؤية الأستاذ هيكل، ولا في مرات أخرى مهما عدت للقاهرة ومهما تريضت في شارع النيل أمام العمارة التي فيها شقته ومكتبه. على الأقل في المرات السابقة كنت أمني النفس أن ألتقيه، أو أن يرتب لي القدر صدفة رؤيته كما حدث في باريس. كان ذلك في نوفمبر من عام 2014، كنت أسكن في فندق صغير خلف شارع الشانزليزيه، وفي المساء قرأت خبرا في صحيفة مصرية أن الأستاذ يزور أكثر من دولة أوروبية بدأها بلندن وبعد لندن سيكون في باريس. تمنيت أن يكون الآن قد وصل إلى باريس وأن يكون مقيما في فندقه الأثير: كيرون الذي يحتضن ميدان الكونكورد ويقابل المسلة المصرية التي تقف شامخة فيه، وهو الفندق الذي اعتاد الأستاذ الإقامة

فيه منذ منتصف القرن الماضي. قلت في نفسي لا بد من الذهاب لهذا الفندق في الصباح وتناول فنجان قهوة علّ القدر يرتب لي الموعد المنتظر. المفاجأة غير السارة كانت عندما اكتشفت بعد جولة بحث في الإنترنت أن الفندق مغلق لمدة عام للصيانة بعد أن اشتراه مستثمر خليجي. لكن القدر كان كريما معي أكثر مما أتوقع، فبينما كنت أسير ومجموعة من الأصدقاء في شارع الشانزليزيه إذا بالأستاذ هيكل يمر إلى جواري، لوهلة اعتقدت أن الأمر لا يعدو كونه خيالا لكثرة التفكير في مثل هذه الصدفة أو أنني أتوهم الشبه. وللإمساك بحقيقة اللحظة قلت في ذهول: الأستاذ هيكل! التفتَ، وكان بصحبته وزير الثقافة اللبناني الأسبق غسان سلامة، وقال وهو يبتسم: «أهلا وسهلا يا فندم». كان هو، هو، شعرت وكأن الدنيا لا تسعني أبدا. أي قدر هذا الذي ساقني إلى هنا في هذه اللحظة من هذا الصباح الخريفي الذي تسطع شمسه وتنير سماء مدينة الجمال والأحلام باريس. كان ذلك اليوم من الأيام التي لا يمكن أن أنساها أبدا، ولا أستطيع ذلك. دارت أحاديث مقتضبة بيننا غلب عليها الفرحة والبهجة، لاحظ الأستاذ هيكل أننا نتجاهل بشكل كبير غسان سلامة فتبرع بتعريفنا أنا وأصدقائي به. قلت له إنني أنتظر وعده بالحوار، وإنني سأكون سعيدا لو تحقق الوعد هنا في باريس. لكنه اعتذر! وقال إن جدوله مزدحم جدا خلال أيام وجوده هنا. ورغم الفرحة الكبيرة ذلك اليوم إلا أنني اعتقدت لاحقا أنني تصرفت بشكل غير موفق. ما كان يمكن أن أحدثه عن الحوار في لقاء عابر جمعنا على «الرصيف» كما وصفه لاحقا عندما دخلت مكتبه ورآني «أنا شفتك على الرصيف في الشانزليزيه قبل كدا؟». يا لذاكرته الحديدية التي لا تنسى أدق

التفاصيل. ولثلاثة أيام لاحقة كنت أتسكع على أرصفة ومقاهي باريس على أمل أن تتكرر الصدفة الجميلة مرة أخرى. ولكن مثل هذه الصدف لا تتكرر.

(2)

- **مقهى الفيشاوي،** 2 **سبتمبر** 2019

شعرت بألم كبير عندما أقدم نادل مقهى الفيشاوي، الذي انتهت جولتنا في الحسين إليه، على ضرب طفلة صغيرة تبيع ورق المحارم أرادت أن تداعبني بطريقة تجبرني بها على شراء المحارم منها. لم أكن منزعجا منها رغم أن كثرة المتسولين في الحسين مزعجة جدا جدا.. كانت الطفلة خفيفة الظل، وتحمل الكثير من روح المصريين الحقيقية، رغم طفولتها البائسة أو المنزوعة منها قسرا. شعرت أنني تسببت لها بذلك الضرب القاسي الذي لا يليق بعمرها وطفولتها.

يكثر المتسولون الأطفال في الحسين لأن المافيا التي تديرهم تعرف يقينا أن أغلب زوار الحسين من السياح الأجانب، وأنهم في الغالب يستطيعون الدفع، أو أن كثرة مضايقتهم تجعلهم يدفعون دفعا للبلاء أكثر منه طلبا لأجر الصدقة. استعدت مع الأصدقاء ذكريات مقهى الفيشاوي عندما أتيته في عام 2001، لا أذكر التفاصيل كثيرا لكن أذكر اللهفة، وأنا لدي وفاء كبير للأماكن وذكرياتها.

استمرت سهرتنا في الفيشاوي إلى ما يقرب منتصف الليل، ولكني كنت أفكر في الطفلة التي صُفِعتْ على وجهها بسببي وطردت خارج المقهى. مئات الأطفال هنا أجبرتهم الظروف وربما عصابات مافيا الأطفال على احتراف

التسول، وعلى ترك طفولتهم جانبا، إن كانوا شعروا بها يوما في الأساس، واحترفوا مهنة لا يعود «خيرها» عليهم وإنما على العصابات التي تؤويهم في ظروف لا إنسانية، ولا نصيب لهم منها إلا كسرة خبز يابسة إن وجدت وثياب رثة. وتنبهت السينما المصرية لهذه المشكلة منذ وقت مبكر منذ منتصف أربعينيات القرن الماضي حينما قدم يوسف جوهر فيلم «الأبرياء»، ثم تلاحقت أفلام غيره مثل «أولاد الشوارع» و«جعلوني مجرما» و«العفاريت» وغيرها الكثير، ويندر أن يخلو فيلم مصري من مشاهد التسول. فكرت كيف يرانا هؤلاء الأطفال خارج سياق أننا «جنيه» يمكن أن يمتد إليهم. كيف ينظرون لنا ونحن نجلس على هذه الأرائك الوثيرة نحتسي فناجين الشاي والقهوة ونضحك ونستعيد ذكرياتنا، بينما تنكسر أمنياتهم عند حدود التفكير بمدّ اليد أو عرض علبة محارم صغيرة كوسيلة مطورة للتسول في محاولة لتجنبها باستبدالها بكلمة ألطف وهي «بيع».

لا تعرف الطفلة التي صُفعت على وجهها، ربما مئات المرات في هذا المكان، ماذا تعني طفولة؟ وماذا تعني أسرة؟ وماذا تعني البهجة، أو حتى ماذا تعني فكرة الجلوس في مثل هذه المقاهي والتأمل في وجوه المارة. لأنها لم تكن يوما في وضع المتأمِل ولكن المتأمَل.

شعرت بظلم العالم أجمع ينثال في تلك اللحظة فيعيد صفع الطفلة الصغيرة مئات المرات.

كنت في عالم آخر، بينما كان الأصدقاء يتحدثون ويضحكون ويقرؤون رسائل الواتس أب بعد أن طارت صورنا عبر فضائه لعُمان. راقبت الوجوه

التي تمر هنا وهناك، رأيت امرأة عجوزًا متسولة أعاقت حركة متسولة أخرى أكبر منها سنا كانت تتكئ على عكاز ضخم. نظرتْ لها نظرة حقد وقالت لها «يا ختي.. ما تخلصي أُمال».

لم يكن عبده أحد نُدُل مقهى الفيشاوي ينادي الطفل الذي يحمل أكثر من 25 كتابا ويدور بها وسط مقاهي الحسين باسمه رغم أنه يعرفه تماما، ولكن كان يناديه بعبارة «عدي يا كُتب».. ومثل هذه العبارات مشهورة في القاهرة، فصاحب سيارة الأجرة يُنادَى «يا أجرة» وقد سمعت شابا ينادي صاحب التاكسي الذي كنت فيه بعد أن تأخر في دخول الشارع « أيه يا أجرة!»، حضر صاحب الكتب هذا خلال سهرتنا أكثر من عشرين مرة وهو يحمل الكتب نفسها دون أن يشتري منه أحد ولو كتابا واحدا، أما الفتاة الثلاثينية التي حولها الفقر إلى عجوز شمطاء فجاءت ورمت على طاولتنا بعضا من الفول السوداني على أمل أن نأكله ثم تبدأ عملية الحساب بعد ذلك، بعد نصف ساعة عادت لتجمع ما رمته وتبدأ عملية الجدال حول السعر.

كان عليّ أن أبحث عن تلك الطفلة لأشتري منها المحارم علّ ندمي يقل جراء الصفعة التي نالتها بسببي! بحثت عنها وسط الزحام، ووسط الغرباء الذين يكشفون عن أنفسهم بسهولة في الحسين لأنهم مقصد المتسولين. وبينما كنت أودع المكان أمام المسجد مباشرة لاحظت مئات الأطفال والنساء يتجمعون هنا. هم أنفسهم الذين كانوا يمرون وسط المقهى، وسط مقهى الفيشاوي وأمام مطعم نجيب محفوظ، والمرأتان العجوزان اللتان تشاجرتا أمامي، والمرأة التي رمت على طاولتنا الفول السوداني. بحثت عن الطفلة،

تأملت وجوه العشرات من الأطفال. عدت للصور في هاتفي للتأكد من شكلها ثم عدت أبحث. ثم رأيتها، على الرغم من كل التعب الذي مر عليها في هذا اليوم، والخذلان، والصفعة التي تلقتها، وما يمكن أن ينتظرها في ليلة أخرى من ليالي مافيا التسول إلا أنها كانت تبتسم، وتضحك. ناديتها لأعتذر لها، لأعتذر لإنسانيتها، لطفولتها التي لا تعرفها، وللمصطلح الذي لم تسمع به ربما، لأعتذر لابتسامتها التي أخجلتنا. وقبل أن تغادر إلى وسط مئات الأطفال سألتها عن اسمها وقالت «رحمة».

(3)

كان مقهى الفيشاوي من الأمكنة الأولى التي قصدتها عندما زرت القاهرة أول مرة في صيف 2001، وكان محفزي لذلك ما قرأته في روايات نجيب محفوظ، دون أن أكون على علم بالتاريخ السياسي للكثير من المقاهي، أو حتى بالتاريخ الأدبي، فقد كان الفيشاوي وغيره من المقاهي مكانا يلتقي فيه أهل الثقافة والفكر والسياسة، وعلى طاولاته تدرس الأطروحات الفكرية والفلسفية التي تدير دفة الحراك السياسي.

عندما دخلت منطقة الحسين بتفرعاتها الأصغر في ذلك الوقت المبكر من الوعي كنت أستعيد بعض تفاصيل ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة، في محاولة لمطابقة المكان الروائي على المكان الحقيقي. على سبيل المثال المشهد الذي كانت تنظر فيه أمينة زوجة أحمد عبدالجواد لزوجها وهو يخرج من البيت في طريقه للدكان، أو حمام السلطان، والصاغة، والغورية، والصناديقية

وهي الأماكن التي رسمها نجيب محفوظ في روايته بدقة متناهية، أو الطريق التي سارت فيها أمينة وهي ذاهبة لزيارة مقام السيدة زينب. كانت المقارنة تحتاج إلى شخص متخصص بالمكان أكثر من ضيف قرأ الرواية وجاء ليبحث عن تفاصيل فضائها المكاني في القاهرة القديمة. لكن الروائي الجميل جمال الغيطاني عقد لاحقا مقارنات من هذا النوع، وهو أحد أخبر الناس بالقاهرة القديمة كما أخبرني الصديق أحمد الفلاحي الذي عاش بعضًا من حياته في القاهرة. ففي كتابه «ملامح القاهرة في ألف سنة» حاول أن يقرب الفضاء الخيالي من الفضاء الحقيقي.

لا أذكر تفاصيل أكثر من تلك الزيارة للحسين، ولكن مثل هذه الزيارة تكررت كثيرا في المرات التالية التي أتيت فيها للقاهرة، بل إن الحسين كان أول مكان أفكر فيه عندما أكون فيها.

ولذلك أنا هذا.

ورغم أنني لا أذكر تفاصيل تلك الزيارة التي كانت نهارية في الغالب إلا أن هذه الليلة برفقة الأصدقاء ما زالت متوهجة، وعازف العود «عصام بخ» يدندن على عوده بأغانٍ مختلفة.

منتصف الليل في باريس..
استذكارًا للحرب وتشردًا في الشوارع
بحثًا عن قمر مفقود *

(1)

عندما وصلتُ إلى مدينة باريس ويممتُ وجهي ناحية قوس النصر، كان العالم يحتفي بمناسبة مرور مائة عام على صمت مدافع الحرب العالمية الأولى، أو بمعنى أدقّ نصر الحلفاء على دول المحور، فالبشر لا يحتفلون عادة بنهايات الحروب والمآسي، إنما يحتفلون بالنصر، النصر وحده يستطيع أن يصنع الفرح والمجد، ويملي على كَتَبَة التاريخ التفاصيل التي عليهم أن يخلدوها. على الرغم من ذلك لم يخلُ احتفال النصر تحت قوس النصر العملاق من غرائب ومشاهد رمزية لا يمكن أن تمر مرورا عابرا.

جلس سبعون من قادة العالم تحت قوس النصر ظهر يوم ماطر وسيئ وفق قراءة الأوروبيين للطقس، ويمموا وجوههم ناحية نصب الجندي المجهول في ميدان شارل ديغول. كان هذا الحفل مليئا بالرموز التي يمكن أن تقرأ لصالح فرنسا ولصالح رصيدها الإبداعي قبل السياسي، فكأن ما حدث حكاية حبكها روائي فرنسي فنان من طراز باتريك موديانو أو ألبير كامو أو حتى سارتر.

* نُشِرَ في صحيفة «عُمان»، عدد الأربعاء 5 ديسمبر 2018.

المنتصرون جلسوا إلى جوار الخاسرين في الحرب العالمية الأولى أو إلى جوار أحفادهم وإن تغيرت الأيديولوجيات، ولكن آلام الماضي وما نقشه في تاريخهم كانت باقية في نفوسهم، ميركل كانت في الوسط بين ترامب وماكرون. وبوتين جلس بين ماكرون وأردوجان سليل الدولة العثمانية أحد أكبر الخاسرين في الحرب العالمية الأولى، وجميع هؤلاء جلسوا تحت قوس النصر الذي بدأ بنيانه في عهد نابليون تخليدا لانتصاراته الإمبراطورية في أوروبا والعالم، وحدث كل هذا في ميدان شارل ديغول الذي قاد الفرنسيين في الحرب العالمية الثانية واستقل بها عن الجيوش النازية، وفرح بالنصر مع الحلفاء على دول المحور بقيادة ألمانيا النازية في نهاية الحرب العالمية الثانية، وهي الحرب التي كانت نتيجة حتمية لصمت مدافع الحرب العالمية الأولى وشروطها المذلة على دول المحور وخاصة ألمانيا والنمسا.

كان يمكن أن يقرأ الروائي باتريك موديانو ماذا تقول عيون أردوجان الحالم دوما بسحر لقب «السلطان»، الذي سقط مع سقوط الدولة العثمانية التي لم تكن إلا بقايا «رجل مريض» كما كانت تسمى مع بداية الحرب العالمية الأولى، أو أن يقرأ ماذا تقول عيون بوتين الحالم بروسيا جديدة على ذكرى مجد الاتحاد السوفييتي وأمجاد القرن العشرين، وكان يمكن لسارتر أن يكتب عن الكثير من العدمية في عيون عشرات من المثقفين العرب أو الدبلوماسيين ممن حاموا حول قوس النصر في تلك الليلة مستذكرين خدعة الثورة العربية الكبرى وما خرجوا به من عار في الحربين الأولى والثانية. وكان لآخر أن

يكتب كثيرا لو قيظ لهتلر أن يرى ميركل وهي تضع إكليلا من الزهور على قبر الجندي المجهول أسفل قوس النصر!!

***

كانت باريس هذه المرة غير باريس التي أعرفها وأتوق لزيارتها دوما. كان قوس النصر على موعد في اليوم التالي مع بدء حركة إضرابات واحتجاجات يقودها أصحاب «السترات الصفراء» احتجاجا على ارتفاع أسعار الوقود في فرنسا وتدني مستوى الدخل، تلك الاحتجاجات ستتطور مع الأيام إلى أعمال عنف وتخريب وفوضى عارمة عمت مدينة باريس التي تحولتْ في الأيام التالية من مدينة النور إلى مدينة النار بعد أن اشتعلت الحرائق في أجمل شوارعها «الشانزليزيه»، وفي أشهر ساحاتها «شارل ديغول»، تحت قوس النصر بالتحديد الذي كان قبل أيام قليلة فقط يحتفل وفق سيناريو فرنسي بذكرى انتهاء الحرب العالمية الأولى. لم يشفع للرئيس الفرنسي ماكرون ما حدث. والفرنسيون على الرغم من أنهم يعتنون بتاريخهم وبذاكرتهم وثقافتهم إلا أنهم لا يقيمون كثير وزن للسياسيين إذا اختلفوا معهم. شعب يستطيع سريعا أن يحدث قطيعة مع قادته ما داموا على قيد الحياة، أما إذا رحلوا فإنهم يتحولون إلى رموز خالدة كما هي الحال مع شارل ديغول الذي ينتصب تمثاله العملاق ميمما وجهه ناحية ميدان الكونكورد وميدان الفاندوم. ما يحدث في باريس هذه الأيام يعيدنا إلى الاحتجاجات التي اندلعتْ على الجنرال شارل ديغول نفسه عام 1968، فالجنرال على الرغم من كل ما فعله من أجل فرنسا في الحرب العالمية الثانية، ونضاله من مهجره في لندن حيث شكل حكومة منفى، إلا أن كل ذلك لم يعد

له قيمة عندما قررت الجماهير أنها وصلت إلى أقصى ما تستطيع تحمله من سطوة ديغول وحكومته القمعية ضد المفكرين ورجال الأدب والصحافة، وضد فشلها في تحقيق عدالة اجتماعية، فبدأت الإضرابات والاحتجاجات ونزل الطلاب والعمال إلى الشوارع يهتفون ضد ديغول مطالبين برحيله. صحيح أن الفرق كبير بين جوهر احتجاجات مايو 1968 واحتجاجات نوفمبر–ديسمبر 2018 لكنّ خطاب العدالة الاجتماعية حاضر في العهدين. ولا أعرف إذا كنا سنسمع خلال الأيام القادمة صوتا يقول: «من يستطيع أن يعتقل فولتير؟ اتركوه حرا» كما قالها ديغول يوم اعتقلت قوى الأمن الكاتب الكبير سارتر، لكن قوى الأمن اليوم ليست كما كانت في ذلك العهد، وليس عهدُ ماكرون أو حتى سلفه عهد اعتقالات أدباء ومفكرين ورموز ثقافية، فثورة مايو استطاعت تغيير الكثير من فرنسا.

بين الحدثين خمسون عاما بالتمام والكمال، فهل يضطر ماكرون للانحناء أمام العاصفة ويتنحى كما فعل ديغول؟ أم أنه سيفرض سطوته ويبسط نفوذه مستفيدا من دروس الماضي، ومن أوروبا الخائفة أن تنتقل لها العدوى بفعل الجوار وتقارب الظروف؟!

(2)

عندما انتصف الليل في باريس وبعد أن طردت أشباح ستة عشر مليون قتيل في الحرب العالمية الأولى، ورمزية سيناريوهات الاحتفاء بذكراها المئوية بالطريقة التي حصلت، وبعد تفكير في مصير حراك أصحاب السترات

الصفراء، جلست أستعيد الفيلم السينمائي الخفيف الذي تابعته في الطائرة بعد أن عجزت عن إتمام كتاب «حتى لا يعود جهيمان». لحظات الهدوء في الطائرات مغرية، أحيانا، بالقراءة أو متابعة الأفلام، أما النوم فلا يأتي في كل وقت، خصوصًا إذا ما صاحب الرحلةَ مطباتٌ هوائية مخيفة أو صراخ أطفال. أستعيد الآن في هذا الوقت المتأخر من ليل باريس الضاج بالحنين والفقد فيلم «منتصف الليل في باريس» (Midnight in Paris) للمخرج وودي ألن وبطولة أوين ويلسون وراشيل ماك أدامز. صحيح أن الفيلم لم يكن اختياري الأول، ولكني اضطررت له بعد أن اكتشفت أن فيلم «كل رجال الرئيس» غير مترجم للعربية. فكرت أن فيلما عن باريس يمكن أن يفي بالغرض. يحاول الفيلم الترويج السياحي للعاصمة الفرنسية، خصوصًا في دقائقه الأولى فيقدم بانوراما سينمائية عن معالم المدينة الطبيعية والتاريخية وجماليات مقاهيها ونهرها العظيم، ويقدم صورة باريس تحت ضوء الشمس وصورتَها تحت زخات المطر.

قصة «منتصف الليل في باريس» بسيطة جدا وغريبة في آن، فبطل الفيلم «غيل بيندر» الذي يجسده الممثل أوين ويلسون (Owen Wilson)، وخطيبته إينيز (جسدتْ دورها الممثلة الكندية راشيل ماك آدمز Rachel McAdams) القادمان من أمريكا يقضيان إجازة في مدينة باريس استعدادا للزواج. غيل كاتب سيناريو هوليودي ناجح ولكنه يتوق لكتابة رواية بعد أن أغرم بمدينة باريس التي يعدّها الأجمل في الكون، ولكن ليس في وضعها الحالي فهو يحلم بالعيش فيها في العشرينيات وتحت زخات المطر بالتحديد.

الرواية التي يتوق غيل لكتابتها تتحدث عن «متجر الذكريات» وهو ما يعرضه لسخرية خطيبته. وبينما تذهب الخطيبة لحضور حفل راقص يتسكع غيل في أزقة باريس، وعند منتصف الليل في سان جرمان بالحي اللاتيني تمر عليه عربة الزمن ويدعوه ركابها للانضمام إليهم، فإذا هو ينتقل إلى حقبة زمنية جديدة، وهناك يجد روائيين كبارًا وفنانين ومفكرين أمثال فرنسيس سكوت فيتسجيرالد، وهمنجواي، وغرترود شتاين، وبيكاسو وسلفادور دالي، ويقيم معهم حوارات حول الأدب والرواية. ويعيش غيل حياتين: نهارية في عالمه الواقعي في مشاحنات مع خطيبته، وليلية في عالمه الخيالي الذي يعود به إلى عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، ومع الكثير من الحوارات الفكرية والثقافية والفنية.

رغم بساطة الفيلم إلا أنه مناسب للطائرة في الطريق لباريس تحديدا. واستطاعت العدسة السينمائية أن تعرض مشاهد للمدينة وكأنك تراها للمرة الأولى.

فكرة «غيل» عن باريس في بدايات القرن الماضي وتحت زخات المطر بالتحديد مغرية جدا، فمدينة مثل باريس ساحرة تحت زخات المطر الخفيف، آسرة جدا مع بدء تساقط الثلج الذي يشبه قطنا تبعثره الرياح. وهذا ما عشته في الأيام التي قضيتها في المدينة، أيام ماطرة وأيام مشمسة وأيام يتساقط عليك الثلج فيها وكأنه قطنٌ ناعمٌ يداعب وجهك. إلا أن عربة الزمن لم تمر رغم تسكعاتها الليلية في طرقات المدينة وعلى ضفة نهرها، أو تحت ظلال كنائسها المقدسة، على الرغم من أن فنجان قهوة مع همنجواي كان يمكن أن يعني

الكثير لعاشق لهذه المدينة وكل تجليات جنونها الذي لا يخلو من سحر حلال.

لم يكن رفاق الرحلة، وأغلبهم يزور المدينة للمرة الأولى، يعلمون المسافة الحقيقية بين قوس النصر ومقاهي سان جرمان في الحي اللاتيني، قلت لهم خمس دقائق ونصل. لكن الدقائق الخمس انتهت ونحن لم نعبر شارع الشانزليزيه، الشارع الذي تعتز به فرنسا وتعده علامة من علامات تفردها رغم أن عصر العولمة لم يبقِ خصوصية لهذا الشارع. أنقذني شارل ديغول عندما وقف الزملاء للتصوير مع تمثاله المصنوع من البرونز أمام القصر الصغير الكائن بين نهاية شارع الشانزليزيه وبداية ميدان الكونكورد، لحظات التصوير أنست الجميع الدقائق الخمس وإن كانت ستعود لاحقا عندما يطول المسير على ضفة السين.

رغم أن ديغول أوصى ألّا تقام له التماثيل ولا تقرع أجراس الكنائس يوم وفاته، إلا أن الرئيس الفرنسي جاك شيراك أصر على مخالفة وصيته وأقام له تمثالا في عام 2000 يواجه تمثالا لجورج كليمونصو رئيس وزراء فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى، وتمثالا للسير ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق.

المشي في شوارع باريس، وفي فصلي الخريف أو الربيع، بشكل خاص، متعة لا تعادلها أي متعة، فشوارعها خلقت للمشي بالأرجل لا لتدوسها السيارات أو تهدر فيها القطارات القادمة من بعيد. وهذه متعة أثيرة في أوروبا بشكل عام، لا نعرفها في مدننا الخليجية إلا نادرا.

تركنا ديغول إلى ساحة الكونكورد التي سنقف فيها طويلا نتذكر أبيات نزار قباني ونحن ننظر إلى النوافير:

هل تذكرين بباريس تسكعنا تمشين أنت فيمشي خلفك القمر

إلى أن قال:

حتى النوافير في الكونكورد تذكرنا ما كنت أعرف أن الماء يفتكر

وعلى الرغم من جمال نوافير الكونكورد، إلا أن عربيا مولعا بعروبته يمكن أن يرى فيها بكاء حارا على المسلّة المصرية المنتزعة من أمام معبد في الأقصر والمغروسة في قلب ميدان الكونكورد، بعد أن أهداها الوالي المصري محمد علي للملك فيليب الذي اختار لها هذا المكان بالتحديد، وهو المكان الذي أعدم فيه الملك لويس السادس عشر والملكة ماري انطوانيت، وهو المكان نفسه الذي سيعود فيليب ويتنازل فيه عن العرش بعد أن أجبرته الجماهير التي ستمحو اسمه من قاعدة المسلة ولو مؤقتا. إنها فرنسا التي لا ترحم قادتها الأحياء، وإنهم العرب الذين يبيعون تراثهم وأمجادهم ويرضون بالقليل؛ ففرنسا أهدت مصر ساعة غربية لتعلق في مسجد محمد علي شكرا لها على المسلة!

تركنا الكونكورد والبرلمان الفرنسي وسرنا على ضفة نهر السين نستذكر التاريخ وعِبَره التي لا نعيها في العالم العربي، متجهين إلى سان ميشيل وبقية معالم الحي اللاتيني الذي كان يرتاده فلاسفة فرنسا وأدباؤها وفنانوها في الأزمنة الجميلة. الحياة في الحي اللاتيني تأخذ طابعا مختلفا،

فعلى الرغم من تغير المشاهد التي قرأناها في ما كتبه الأدباء، إلا أن رائحة بعضٍ من تلك الأزمنة ما زالت باقية في الحي، وفنجان قهوة يمكن أن يعيد لك الكثير من ذكريات الزمن الجميل يوم كان هذا المكان يعج بالمثقفين والمفكرين الفرنسيين والأوروبيين والعرب الذين نكلت بهم حكوماتهم العربية، فلم يجدوا أفضل من باريس ينمو فيها الإبداع ويترعرع.

نجلس في المقهى المجاور لنافورة ميدان سان ميشيل، أشير للزملاء إلى الفندق المقابل الذي سكنته في أول زيارة لي لباريس وللمقهى الذي شربت فيه فنجان قهوة مع الشاعر أدونيس وآخر مع الشاعر سيف الرحبي والروائي خليل النعيمي، وعن المسرح الذي ما زال يعرض مسرحية «المغنية الصلعاء» (La Cantatrice Chauve) لأوجين يونسكو (Eugene Ionesco) على الرغم من أنها عرضت لأول مرة في مايو من عام 1950. منذ سبع سنوات وأنا أزور باريس كل عام تقريبا، وما زال هذا المسرح يعرض المسرحية ويعلق بوستر العرض أمام مدخله. وحتما ما زالت المغنية الصلعاء تصفف شعرها كما صففته أول مرة قبل أكثر من ثمانٍ وستين سنة.

***

تشرق الشمس في باريس، فتنزل المظلات من فوق الرؤوس ويتخفف الرجال والنساء بشكل خاص من ملابسهم الثقيلة، وترى الفرحة والبهجة في وجوههم كما تراها في بلادنا الخليجية في اليوم الماطر. لكن هذه الشمس

نفسها، وإنْ بقسوة عالية، كانت سبب شقاء الفرنسيين في هذا الصيف، فقد بلغت درجة الحرارة 40 درجة مئوية، فصار الناس يموتون؛ يموتون حقيقة، من شدة الحر. كنت هنا في الصيف بعد يوم أخير من موجة الحر القاتلة التي نزعت البسمة من وجوه الجميع وقذفت بهم رجالا ونساء وأطفالا في النوافير متخففين من كل ملابسهم.

تشرق الشمس في باريس وأشرب فنجان قهوة في مقهى «لو فوكيت» (Le Café Fouqets) العريق في مدخل شارع الشانزليزيه (Avenue des Champs-Elysees) وأقرأ صحف الصباح العربية القادمة للتو من لندن مدينة الإعلام، فباريس لا تصدر فيها ولا صحيفة باللغة العربية، على الرغم من المجلات المهمة التي كانت تصدر هنا في ثمانينيات ومطلع تسعينيات القرن الماضي. كل الصحف المهاجرة تصدر في لندن، وأخيرا صدرت هنا مجلة جديدة باللغة العربية تحمل اسم «كل العرب» لناشرها ورئيس تحريرها علي المرعبي، لكنها محدودة التوزيع بعد صدور العدد الرابع منها، فلم أجدها في كل أكشاك الشارع ولا حتى في الحي اللاتيني.

يأخذني المسير بعد فنجان القهوة وقطع من بسكويت اللادوريه (La Duree) إلى ساحة الفاندوم (Palace Vendome) وما زالت قصيدة نزار تطن في رأسي «خطاك في ساحة الفاندوم أغنية/ / وكحل عينك في المادلين ينتشر»، وحكاية ساحة الفاندوم لا تبتعد عن حكايات الحرب أبدًا، فعمود الفاندوم الذي ينتصب في الساحة، والذي

يحمل فوقه تمثال نابليون بونابرت صنع من حديد المدافع التي غنمها نابليون من حروبه مع الأوروبيين. أبتعد عن الساحة مقتربا من قصر غارنيي أو دار الأوبرا الفرنسية الذي لا تستطيع الكلمات أن تصف جماله الباذخ. أقضي النهار بالكامل هناك محدقا في كل تفاصيل الجمال ومتأملا الوجوه الرائحة والغادية، فكل زوار هذه المدينة لا بد أن يمروا هنا ولو للاستظلال بظلال العراقة والتاريخ والفنون العريقة.

من تفاصيل الحمراء إلى جنّات العريف..
بذخ القصور وعظمة الهندسة المعمارية الإسلامية *

كان علينا أن نترك مساءات مدينة مربيلا باكرا ونأوي إلى الأحلام علّها تقرب لنا صباحا نعانق فيه مدينة غرناطة بكل ما تحمله من أبهة المجد والتاريخ. المجد الذي صنعه أجدادنا العرب عندما عبروا إلى هنا فاتحين وحاملين مشاعل النور التي ظلت تنير سماء الأندلس ثمانية قرون.

كنا على مدى خمسة أيام مضت ننتظر لحظة العناق الموعودة، وعناق المدن العريقة على شاكلة غرناطة ليس أقل حميمية ولذة من عناق حسناء نافرة تختال بحسنها، وهي تعبر «جنات العريف» التي قدّت على رأي كل من زارها من جنان السماء.

ولأننا تركنا مربيلا بكل ما تحمله من جمال شواطئ وجبال تتماهى مع البحر في مشهد أقرب إلى التماهي والحلول الصوفي، كان علينا أن نختار من غرناطة درتها وجوهرتها، والحق أنها درة إسبانيا كلها إن لم تكن أوروبا بكل عظمتها. كان علينا إذن أن نوجه المسير باتجاه «الحمراء» أعجوبة المسلمين في بلاد الأندلس، أو كما يحلو لنا اليوم أن نسميها «الفردوس المفقود».

في طريق الصعود إلى الحمراء كانت فيروز تلح بالحضور وهي تشدو بصوتها الملائكي «جادك الغيث إذا الغيث همى، يا زمان الوصل بالأندلس»،

* نُشِر في مجلة «العربي» الكويتية، العدد 669، أغسطس 2014.

وتفتح الموشحات جراح الأندلس يوم كان هذا القصر إمبراطورية عربية تحميها سباع متوقدة، وتهندسها عبقرية عربية لا تتكرر.

كان نيكولاس في انتظارنا عند بوابة الحمراء، ونيكولاس ليس مجرد دليل سياحي فقط، إنه عاشق للحمراء حد الهيام، وقد قرأ كل الكتب التي كتبت عن غرناطة، لكنه أكثر قربا وحبا للأمريكي واشنطن ايرفينغ (Washington Irving) صاحب كتابَيْ «الحمراء» و«أخبار سقوط غرناطة».

نيكولاس الذي اصطحبنا إلى أعلى الربوة التي يقع عليها مجموع قصور الحمراء قرأ «حكايات الحمراء» وهو في العاشرة من عمره، فكان أن عشق الحمراء إلى الأبد واختارها مكانا لعمله اليومي.

أما نحن القادمين من أعماق جزيرة العرب فكان علينا أن ننصت لتفاصيل التاريخ وهي تروى من دليلنا السياحي ومن عشرات الكتب التي تستقر بلا ثقل على جهاز «الآيباد»، فهذه الحكايات لا تروى مرتين.

- **شموخ بلون أحمر**

تذهب أغلب المراجع التاريخية إلى أن سبب تسمية «الحمراء» بهذا الاسم عائد إلى نوع التربة التي بني بها «القصر». فلونها أحمر، وهو لون حاضر بقوة في كل القصر أو الإضافات التي شهدها في المراحل التالية.

ويبدو قصر الحمراء شامخا، يحكي قصة حضارة كانت تنير العالم في يوم من الأيام، فوق أعلى تل السبيكة على الضفة اليسرى لنهر الدارو شرقي غرناطة، وأمام أحياء البيازين والقصبة.

بني قصر الحمراء في المرحلة التي شهدت تقلص الدولة الإسلامية من الأندلس وتراجعها نتيجة حروب النصارى لاستعادة إسبانيا. وكان محمد بن يوسف الأحمر المعروف بمحمد الأول، أول من بدأ في بناء القصر، يبحث عن مكان يحتمي فيه ويبقي على بعض أمجاد عائلته؛ ولذلك اختار موقعا استراتيجيا يصلح أن يكون برج مراقبة لكل من يقترب من المدينة أو يحاول الصعود إلى تلالها.

وحسب المراجع التاريخية فإن غرناطة لم تكن إلا قرية صغيرة يوم الفتح الإسلامي للأندلس في بداية القرن الثامن الميلادي، لكنها أخذت تنمو وتكبر منذ القرن العاشر حتى إنها حلت لاحقا محل البيرة مع بدء سقوط الممالك الإسلامية هناك، لتصبح لاحقا مملكة غرناطة لقرنين ونصف ولتكون آخر معقل يسقط للمسلمين في الأندلس، بتوقيع أبي عبدالله الصغير.

- **خطوة خطوة نحو القصر**

كانت غرناطة تحكم من داخل قصر الحمراء الذي لم يكن مجرد قصر فقط، بل كان مدينة متكاملة تقول الروايات إنها تضم قرابة أربعين ألف جندي، عدا عائلة بني نصر ووزراء بلاطه.

وكان بنو نصر قد وصلوا إلى الحكم في القرن الثالث عشر الميلادي على يد محمد بن الأحمر المعروف بمحمد الأول كما سبق أن أشرنا، الذي حكم غرناطة في الفترة ما بين عامَيْ 1238 – 1273م. وقد اتخذ من الحمراء مقرا للأسرة الحاكمة. ليبدأ بذلك العصر الذهبي للحمراء.

وعزز محمد الأول «القصبة» التي كانت قائمة قبل أن يفكر في بناء قصر الحمراء، مخمنا بحسه العسكري أن تلك المنطقة هي المكان الأنسب لحماية أسرته من أي هجوم ولمراقبة تحركات العدو، فشيد برجا للحراسة ليكون نواة لما سيكون عليه القصر لاحقا. واستكمل ابنه محمد الثاني ولاحقا محمد الثالث مشوار البناء، وألحق بالقصر المسجد الجامع الذي أنشئت فوقه كنيسة سانتا ماريا الحالية. وهو حال كل المساجد في الأندلس التي حوّلها المتنصِر إلى كنائس.

إلا أن أغلب المباني في قصر الحمراء تنسب إلى يوسف الأول (1333-1353م)، ومحمد الخامس (1353-1391م). على أن أبدع ما بناه يوسف الأول هو بهو الأسود، وهو من أجمل أركان القصر.

- **قصر كارلوس الخامس**

بعد أن تنفسنا هواء الحمراء وشعرنا بعراقة المكان والزمان الذي مر على هذه البقعة من فردوس العرب المفقود، ابتسم نيكولاس وقال لندخل إلى قصر كارلوس الخامس. وكان نيكولاس يعني ما يفعل، أراد أن يرينا الفرق بين القصرين، قصر الحمراء وقصر كارلوس والفرق بين عبقرية الهندسة الإسلامية والهندسة الإسبانية. لم يكن قصر كارلوس متناغما مع المكان الذي وضع فيه، رغم أن كارلوس كما يقول تاريخ المدينة عاشق للفن، ولكن القصر ظُلم كثيرا لأنه بني في تلك المنطقة. كان يمكن أن يكون له مكانته التاريخية لو بُني في أي مكان آخر، غير جوار الحمراء.

والحق أن ما يميز قصر كارلوس هو بهوه المستدير النادر وهو لذلك يعد أبرز عمل في عصر النهضة الإسبانية.

عندما خرجنا كان نيكولاس يبتسم ويقول سنرى قصر الحمراء بعد قليل.

كنا نتقدم نحو الداخل، إلى القصر، نمر بين الردهات والممرات التي أصاخت السمع للكثير من الحكايات والمؤامرات وقصص الحب والغرام، تلك التي انتهت بروائع الأدب العربي حينا، وبجريان دماء الغدر والخيانة في أحيان أخرى.

هذا هو قصر الحمراء إذن، «كعبة زوار إسبانيا» كما يصفه واشنطن ايرفينغ في كتابه «الحمراء» للذين «ينشدون رؤية الجانب التاريخي والشعري والرومنطيقي لتلك البلاد. فكم من أسطورة وتقليد صحيح ووهمي، وكم من رقصة وأغنية عربية وإسبانية حول الحب والحرب والفروسية، مرتبطة بهذا الركن التاريخي، فهو سرير ملك العرب هناك، المحاط بالروائع والعجائب من أفخم ما صنعته يد الفن الجميل، بهدف تشخيص وتكريس تصور الجنة السماوية عند المسلمين في إمبراطوريتهم الإسبانية»*. وصار اليوم لسان كل زائر يزور الحمراء يقول: «إذا كان هذا تصورا عن الجنة السماوية.. فكيف حقيقتها إذن».

---

* **الحمراء: أثر الحضارة العربية الثقافي والاجتماعي على الأندلس وإسبانيا، واشنطن ايرفينغ**، ت: عبدالكريم ناصيف، وهاني يحيى نصري، مركز الإنماء الخضاري، حلب، ط1، 1996، ص 47.

- **تبدأ الرحلة.. ولا تنتهي الحكاية**

نـدخل القصـر وتبـدأ حكايـات لا تنتهـي أبـدا، حكايـة الهندسـة المعماريـة، وعقلية البناء التي لا يوازيها بناء آخر في الأندلس كلها. ومن أولـى العتبـات كـان شعار بني الأحمر «لا غالب إلا الله» حاضرا في كل مكان. أينمـا وليـت فثمـة «لا غالب إلا الله» تذكر أي غافل أو ناسٍ.

أول مكـان نصـله في داخـل القصـر هـو المصـلى أو كمـا قـال نيكـولاس «المهـراب» بقلـب الحـاء هـاء. وقاعـة المحـراب هـي كـل مـا تبقـى مـن جـامع الحمراء الذي لا نجد له بقايا إلا في ما كتب الشعراء والمؤرخون. بحسب تلك الأخبار فإن الجامع بني في عام 1308م من قبل محمد الثالث، وظل الجامع محتفظا بمعالمه حتى فترة الاحتلال الفرنسي الذي دمره بشكل كامل. يصف لسان الدين ابن الخطيب في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة» الجامع بالقول: «زُيّن بعمل الفسيفساء، وتوريق من أجمل وأعقد النقوش تمازجت مع ورود فضية وقناطر مشرقة، تستند إلى دعائم من الرخام المصقول، فعلا لا يضاهيه شيء بتلك الأناقة في التصميم مع صلابة البناء الذي تحرى عنه السلطان بنفسه، وجمال التناسق، فلا يوجد لهذا البناء مثيل في تلك البلاد، وكثيرا ما سمعت أفضل مهندسينا يقولون بأنهم لم يشاهدوا أو يسمعوا قط ببناء يمكن أن يقارن به».

لكن شيئا من ذلك لم يبق اليوم. وحده المحراب بقي شاهدا على جامع لا مثيل له. والمحراب بشكله الحالي جُدد مطلع القرن العشرين بعد أن بقي في حالة سيئة نتيجة انفجار مخزن للبارود في عام 1590. ومع الاقتراب من

المحراب تتضح أربع شرفات صغيرة ذات أقواس متطابقة ونوافذ صغيرة تكشف الكثير من تفاصيل المدينة في الخارج، وتسمح للضوء بدخول المصلى على شكل خيوط من نور.

ومن المحراب إلى فناء الريحان تستمر الرحلة داخل القصر، حيث البركة الأكبر التي تنعكس في صفاء مائها قبة السماء، ويتسابق زوار القصر للوقوف ثواني والتقاط صورة تذكارية تخلد الزيارة، لكنها تكشف عن روعة الهندسة المعمارية.

وتبلغ مساحة الحوض 34 مترا في 17. 10 ويقسم الفناء بشكل طولي، وتصل المياه إلى الحوض عن طريق حوضين رخاميين واقعين في كل طرف. وعلى جانبي الفناء يمتد رواقان معمدان قائمان على أعمدة ذات تيجان مكعبة ذات سبعة أقواس شبه دائرية مزخرفة بزخارف مفرغة معينة الشكل ونقوشات تسبيح لله. وتبدو هندسة الأقواس معتمدة على نظريات رياضية أبدعها العلماء العرب، فالقوس المركزي أكبر من الأقواس الستة الأخرى، وعليه أشكال مثلثة مزينة بزخارف نباتية وتيجان أعمدة مقرنصة.

ويمكن أن يقرأ الزائر الكثير من النقوش والكتابات على الممرين، من قبيل «العون والحماية من الله، والنصر المؤزر لمولانا أبي عبد الله، أمير المسلمين». ويمكن عدّ فناء الريحان امتدادا لقاعة السفراء، أو قاعة العرش التي كان فيها عرش الملك. وتعد قاعة السفراء من أفخم قاعات القصر، وكان الملك يستقبل فيها زواره الرسميين، وكان مطلوبا أن تبدو القاعة مهيبة وتبعث

الخوف في نفوس الزوار حتى لا يطمع أحد في القصر، ومن ورائه مملكة غرناطة.

وتتصل القاعة بفناء الريحان عن طريق قوس مزدوج. وتُمكن مشاهدة شعار بني الأحمر في وسط القاعة من كل الاتجاهات، أو هو كما يقول المهندسون محور النظر مع مكان جلوس الملك. وفي كل جدار من جدران القاعة ثلاثة أقواس تصل إلى محاريب مفتوحة في الجدار.

والقاعة متخمة بالنقوش، وكلما تعمقنا في الداخل تزداد النقوش والزخارف حضورا وإبهارا.

وهذه القاعة من أكثر القاعات ازدحاما بين قاعات القصر، ومن أكثرها إيلامًا بالنسبة لزواره العرب، ففيها بحسب أكثر الروايات وقّع أبو عبدالله الصغير وثيقة الاستسلام؛ ولذلك لم أستغرب عندما سمعت شيخا عربيا كبيرا في السن ينشد بيتا شعريا بصوت مسموع وهو يقترب من مكان العرش.

ابكِ مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال

أعاد الشيخ العربي الذي لا شك أن المشهد كان موجعا بالنسبة له، تفاصيل المشهد الأخير لخروج أبي عبدالله الصغير من الحمراء واستسلامه للملك فرديناند.. كان المشهد يُنطِق الصخر عندما رأت أمه عائشة دموعه تنهمر، فقالت له ببديهة عربية وسليقة صافية البيت الذي سار مثلا، وكثر ترديده لاحقا مع توالي سقوط المعاقل العربية في كل مكان.

اقتربتُ من الشيخ الذي عرفت أنه سوري وسألته: هل تبكي على سقوط الأندلس بعد كل هذه القرون؟

فردّ سريعا:

«كل المدن والعواصم العربية تسير على طريق غرناطة يا ولدي». أرعبني الرد وأنا أقترب أكثر من ساحة العرش التي كان يتربع فوقها أبو عبدالله الصغير بقلق وارتباك في أيامه الأخيرة، وكانت أصوات الخسائر وسقوط ممالكه لا تحتاج إلى الصعود فوق الأبراج العالية المنتشرة حول الحمراء، فهي تصل إليه من كل النوافذ والشبابيك، بل وتسير في قنوات الماء وسواقيه. إنها النهاية بكل تجلياتها.

- **سباع تحرس الحقيقة**

يمضي الوقت سريعا في القصر دون أن نستطيع الوصول إلى كل ردهاته، ودون أن نستطيع رسم خارطة ذهنية كاملة له، نسأل مرافقنا أين نحن الآن؟ لا يبطئ في الإجابة: نحن في الربع الجنوبي الشرقي من القصر، إنه بهو الأسود، أو السباع كما يسميه البعض.

وقف نيكولاس في وسط البهو وحرك يديه وسط خصل شعره المتساقطة فوق وجهه وقال متذكرا واشنطن إرفينغ: «لا يوجد قسم في هذا القصر من شأنه أن يعطينا فكرة كاملة عن جماله الأصلي وروعته أكثر من هذا».

ويعلل نيكولاس كلام واشنطن بالقول إن هذا المكان لم تطله يد الزمان بالتخريب إلا قليلا. وتقوم في وسط البهو النافورة المشهورة التي تغنى بها الشعراء وحبكت حولها الحكايات في الذاكرة العربية عندما تستعيد ذكريات الأندلس. وبجانب النافورة أحواض المرمر التي لا تزال على الرغم من تعاقب

القرون تصب قطراتها الماسية، يدعمها الاثنا عشر أسدا التي تجعل نبعها البلوري يتدفق كما في أيام أبي عبدالله الصغير.

بنى هذا البهو/ القصر محمد الخامس الذي خلفه والده يوسف الأول. كان بهو الأسود وما يحيط به يمثل قصر العائلة الذي بني على مقربة من الحمامات وفناء الريحان.

ويرى الكثير من المتخصصين في التراث الأندلسي وتراث بني نصر بشكل خاص أن ذروة فنهم وإبداعهم ظهر في هذا القصر الذي اهتم بالأناقة أكثر من الفخامة على حد تعبير ألبرت كالفرت في كتابه «غرناطة وقصر الحمراء». وفي البهو يتناغم الضوء، والماء، واللون، والزخرفة لتشكّل مجتمِعةً سمفونية الإبداع العربي التي يمكن سماعها بوضوح وأنت تجول ببصرك مشدوها في وسط البهو الباذخ والساحر، فتحسب أنك تسمع تفاصيل سهرة عود بطلها الأول زرياب وضيفها الأوحد الخليفة، أمير المؤمنين.

يأسرنا بهو الأسود، نقترب منها أكثر، عددها اثنا عشر أسدا تخرج المياه من أفواهها. وكانت السلطات الإسبانية قد أخذت في عام 2002 الأسود لتنظيف جوفها من الترسبات التي باتت تعيق حركة المياه، ولكن بعد أن أعادتها في عام 2011 لم يستطع الخبراء أن يعيدوا المياه كما كانت!! وبعد أكثر من عام وبجهود مؤرخين وخبراء وعلماء متخصصين في قصر الحمراء عادت المياه لتخرج من أفواه الأسود مرة أخرى. على أن فكرة الأسود كما يقول دليلنا السياحي والتاريخي كانت دلالة على الوقت، حيث يخرج الماء من فم الأسد

الأول في الساعة الواحدة، ومن فم الثاني في الساعة الثانية وهكذا على مدار الساعة لتُعلم سكان القصر بحركة الزمن من حولهم.

تبدو الأسود مستكينة ومستقرة بعد أن وقّع أسيادها صكوك الاستسلام ولم يعودوا ملوكا لغرناطة ولا لضاحية من ضواحيها؛ فلا صوت لزئير ولا أي رهبة في شكلها. إنها كائنات وديعة جدا، على الرغم من أنها كانت في يوم من الأيام السباع التي تحمي الحقيقة والمكان.

يتكون البهو من باحة تحيط بها الأعمدة على طريقة الأديرة المسيحية، والبهو يتمركز في نقطة تحيط بها كل القاعات الأخرى المرتبط به، بدءا من قاعة القباب المقرنصة في الغرب إلى قاعة الملوك في الشرق وقاعة الأختين في الشمال ومنظرة دار عائشة في الجنوب.

وقاعة الملوك من القاعات التي تبهر زائرها بزخارفها الغريبة، ومقرنصاتها المزخرفة بالألماس المفرغ. وتنقسم القاعة لسبعة أجزاء: ثلاث غرف مربعة ومنفصلة بواسطة قسم مستطيل الشكل وقباب في الأطراف. ويخترق الضوء القاعة بسهولة، وتتباين فيها جاذبية الأقواس مع زخارف جدرانها الرقيقة التي تكسوها النقوشات.

وفي صدر القاعة يمكن رصد الرسوم التي تمثل أول عشرة ملوك من سلالة بني نصر، ومشاهد تمثل الفروسية ورحلات الصيد، إضافة إلى مشاهد تمثل الجانب الرومانسي في حياة غرناطة وقصر الحمراء.

نترك البهو بثاقل كبير إلى الجانب الجنوبي حيث تقع «قاعة بني سراج» وبحسب دليلنا فإن الكثير من الروايات غير المحققة ترى أنها كانت مسرحا

لأحداث مذبحة ستة وثلاثين رجلا من أعيان تلك الأسرة التي جرت بأمر أبي عبدالله الصغير، ويمكن مشاهدة عرق محمر في الأرضية الرخامية يشار إليه على أنه لطخات دم ضحايا يتعذر محوها. وواشنطن صاحب كتاب «حكايات الحمراء» يسخر كثيرا من هذه القصة ويعدها مثيرة للضحك.

وبين حكاية وردهة ونافذة وشرفة تستمر الرحلة في قصر الحمراء، ومن زيارة حماماته وأبراجه إلى غرف نسائه التي كانت شاهدا صامتا على الكثير من حكايات الحب والغرام، إلى متزين الملكة ودار عائشة وبرج قمارش، الذي يستقر فوق قاعة السفراء، وقاعة الأختين وقاعة القضاء التي يبلغ فيها الإسراف والبذخ في الزخرفة مداه الأكبر في القصر. ويقال إن بركة للوضوء كانت في هذه القاعة، وهي الآن في المتحف. وعليها منحوتات نافورة جميلة لأسود، وغزلان ونسور. وفي هذه القاعة بالتحديد أمر فرناندو وإيزابيلا بعد أن دانت لهم الحمراء وغرناطة بأكملها، بإقامة قداس للاحتفال بعودتهما إلى العرش.

- **إلى الجنان.. إلى جنة العريف**

مرورا بحدائق دار عائشة وجدنا أنفسنا نخرج من قصر الحمراء إلى جناته المقابلة: جنة الخليفة وجنات العريف وفناء السرو. وعالم من الجمال والسحر لا مثيل له. لا تبعد ربوة الشمس التي تتمركز فوقها كل الجنان.

وعلى الرغم من أن «جنة العريف» تعود إلى ثاني سلاطين بني الأحمر محمد الثاني إلا أن أول إشارة تاريخية لها تظهر في كتاب لسان الدين بن الخطيب «الإحاطة في أخبار غرناطة» الذي عدّها واحدة من بين سبعة عشر

بستانا تنتمي للتراث الملكي، وأشار إلى تميزها بكثافة أشجارها التي تحجب أشعة الشمس، كما أشاد بسحر مائها وعذوبته ونقاء هوائها.

وإذا كان الكثيرون قد ربطوا بعلاقة بين باني قصر الحمراء والسحر، فإن الربط بينهما في إنشاء جنة العريف أولى؛ إنها جنة حقيقية وليست مجازية، تقف بجمالها وبذخها في موازاة قصر الحمراء من حيث الروعة وتناغم التفاصيل.

ولا شك أن أجمل ما في جنة العريف «فناء الساقية» الذي بات يرمز إلى الجنة أو يرتبط ذهنيا باسمها. وهو مكان مسور مستطيل الشكل يمر بالمحور الكبير للساقية من خلال القناة الملكية. وتشكل نوافير المياه التي تحيط بالساقية وتلتقي في وسطها المشهد الأجمل والأروع.

كانت جنة العريف تشكل الملاذ الأجمل لملوك غرناطة حين تشتد الخطوب، وتكون الجنة هي المهرب الأكثر أمنا والأكثر برودة حينما تشتد حرارة الجنوب.

ويذكر غير مؤرخ أنه من الصعب تمييز الشكل الأصلي لجنة العريف، فقد شهدت الكثير من الترميمات والتعديلات خلال الحقب الإسلامية والمسيحية. ويرى دليلنا السياحي أن أغلب ملامح جنة العريف قد طمست، وما نراه اليوم لا يمت بصلة لشكل «الجنة» كما كانت في عهد أصحابها من بني الأحمر.

- **لكل شيء إذا ما تم نقصان**

كان يومنا في الحمراء هو يوم سبت النور وفق روزنامة الأعياد الإسبانية، وكان يوما مناسبا ليسفح زوار المدينة والقصر من المسلمين دموع الحسرة على مُلك كان وما عاد. ولا بد في هذه الحضرة من تذكر ما أبدعه الشاعر الأندلسي أبو البقاء الرندي في رائعته «لكل شيء إذا ما تم نقصان». وصولا إلى بيته:

يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم جور وطغيان
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدانُ

نترك الحمراء تختفي كلما أمعنا في المسير باتجاه المدينة التي بدأت تحتفل جديا بسبت النور والقيامة، وكان صوت الشاعر اللبناني المسيحي الوليد بن طعمة يرنُّ في أذني وهو ينشد في رثاء الأندلس:

أهكذا كانت الحمراء موحشةً ... إذ كنت ترمق أفواج المغنينا
وللبرود حفيف فوق مرمرها ... وقد تضوع منها مسك دارينا
ويا غمام افتقد جناتِ مُرسيةٍ ... وروِّ من زهرها وردًا ونسرينا
وأمطر النخل والزيتونَ غاديةً ... والتوتَ والكرمَ والرمانَ والتينا
أوصيك خيرا بأشجارٍ مقدسةٍ ... لأنها كلّها من غرسِ أيدينا
كنا الملوكَ وكان الكونُ مملكةً ... فكيفَ صرنا المماليك المساكينا
وفي رقاب العِدى انفلّت صوارمُنا ... واليوم قد نزعوا منا السكاكينا

قرطبة في القلب..
قصة عناق ابن زيدون لولّادة..
اللهفة التي لا تكتمل رغم الحنين*

في حوالي الثانية عشرة ظهرا وصلنا إلى أسوار قرطبة قادمين من مدريد، أنا وزوجتي وابنتي الصغرى شهد، وكان إلى جوارنا طوال الرحلة، التي استغرقت حوالي أربع ساعات بالسيارة، عائلتان كولومبيتان، وسائق إسباني يدعى نيكولاس يتحدث إضافة إلى الإسبانية اللغة الإنجليزية بالقدر الذي يكاد يوصل به المعلومة إلى السياح الذين يقلهم، أما العائلتان الكولومبيتان فلا تتحدثان إلا الإسبانية، لغة كولومبيا الرسمية. بدا أن هدف زيارتنا متضاد تماما؛ ففي الوقت الذي جئنا فيه لرؤية بقايا حضارة أجدادنا الذين بنوا مجد هذه البلاد وكانوا ملوكها وأسيادها لأكثر من ثمانية قرون، أتى الكولومبيون لرؤية أسيادهم الذين احتلوهم لسنوات طويلة، وأعادوا تسمية بلادهم، باللغرابة، باسم يذكرهم بأسيادهم العرب «غرناطة الجديدة»، ولم يكن قد مضى على سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس إلا ثمان سنوات حينما وصل ألونسو دي اوخيدا إلى كولومبيا التي تحولت لاحقا إلى «غرناطة الجديدة».

* نُشِر في صحيفة «عُمان» في يونيو 2014.

بدا نيكولاس الذي نقش اسمه على يده اليمنى بحروف عربية متقطع الأنفاس وكثير النعاس، لكنه يغالبه بشرب شره للكوكا كولا التي لن تفارقه طوال تجوال استمر ثماني ليال في مدن الأندلس. دخلت معه في مشاكسات هنا وهناك حول آثار العرب، فكلما تحدث معي عن معلم من معالم المدن الإسبانية قلت له «يا لروعة أجدادنا العرب»، وعندما يشعر نيكولاس بحصاري ومشاكساتي المستمرة له يلجأ إلى الكوكا كولا وإلى استعراض «أمجاد» أسلافه في طرد العرب من الأندلس، وهو ما فتح لهم مشروع الاستكشاف الذي أوصلهم إلى البحر الكاريبي ولاحقا إلى بقاع أخرى في العالم.

تكشف ظهيرة قرطبة عن جمال استثنائي لا بد أن نكتشف كنهه ولا نفوت أي دقيقة. كان اتفاقنا مع الشركة السياحية التي أعدت لنا الرحلة أن يرافقنا دليل سياحي في كل مدينة ننزلها. لم أفهم نيكولاس عندما قال إن لدينا ساعة ونصفَ الساعة قابلة لأن تكون ساعتين نتجول فيهما في المدينة ونتناول وجبة الغداء حتى يأتي المرشد السياحي. فَرُحتُ وزوجتي نسابق الزمن معتقدين أن أولى مفاجآت المكاتب السياحية قد وصلت، وأنْ لا دليل سياحي. وقد ظلمنا الرجل كثيرا وأنهكنا أنفسنا في الركض وراء معالم المدينة وشوارعها الضيقة. وعندما عدنا بعد قرابة ساعتين اكتشفنا أن رحلتنا الحقيقية ستبدأ الآن، وأن الوقت السابق كان للاستكشاف وتناول الغداء فقط. كانت قرطبة في بدايات إبريل تعانق جمال الربيع، لكنه ربيع يختلف عن ربيع باريس التي قدمنا منها قبل يومين. إنه ربيع الجنوب الأقرب إلى أجواء الجزيرة العربية. ولا غرابة فالعرب يبحثون عن الدفء أينما يمموا وجوههم.

قلت لزوجتي: هذه قرطبة إذن. في القلب حتى الآن، وأتمنى ألا تكون في الرأس هي وكل إسبانيا (في إشارة إلى بيان الشاعر العماني محمد الحارثي حينما دخل إسبانيا أول مرة واعتقله البوليس الإسباني وضربه بالهراوة على الرأس، إذ نشرت يومها الصحف الإسبانية بيانا كتبه الحارثي تحت عنوان: إسبانيا في القلب وفي الرأس أيضا).

هذه أطلال قرطبة التي أضاءت ظلام أوروبا، واستطاعت أن توقد مشاعل التنوير في كل مكان في أوروبا والعالم العربي. العتبات الأولى لدولة الأندلس العظيمة، أم المدائن ومستقر دار الخلافة.

كانت الساعات الأربع التي قضيناها في الطريق إلى قرطبة قد أتاحت لي الكثير من الوقت للبحث في المجلات والتقارير التي جلبتها معي عن المدينة، خاصة أن شهد كانت قد ذهبت في نوم عميق طوال هذه الساعات. قلت لزوجتي سأكون الدليل السياحي/ التاريخي إذا خذلنا المكتب السياحي.

على اليمين من بوابة الدخول إلى المدينة القديمة كان ثمة حوار بين يدَيْن لشاعرَيْن من أشهر شعراء الأندلس: ابن زيدون وولّادة. يدان فوق نصب رخامي، تحت ظلال أشجار كبيرة. يدان تقتربان من بعضهما البعض ولا تلتقيان. مساحة قصيرة جدا ولكن عاشقا ما يمكن أن يقرأها باعتبارها مساحة شاسعة جدا، شاسعة حد الغربة. يمكن أيضا أن نقرأ النصب الرخامي باعتباره جسدين متعانقين في المطلق؛ خاصة أن أربعة أبيات من الشعر منقوشة على العمود الرخامي تصف مشاعر الطرفين. وعلى الرغم من أن اليدين لا تلتقيان إلا أن عبقرية النحات استطاعت أن ترسم اللهفة حولهما، ويمكن أن تقرأ

ارتجافتهما، وشوقهما للقيا. ولكنه ليس حتما على طريقة «أضحى التنائي بديلا عن تدانينا، وناب عن طيب لقيانا تجافينا» التي تجاوزها العاشقان بعد عتاب ولّادة الحار لحبيبها:

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا ... لم تهوَ جاريتي ولم تتخيرِ
وتركتَ غصنا مثمرا بجماله ... وجنحتَ للغصن الذي لم يثمرِ
ولقد علمت بأنّني بدر السما ... لكن دهيت لشقوتي بالمشتري

فولّادة تكتب لابن زيدون على النصب الاستفتاحي لدخول المدينة:

أغار عليك من نفسي ومني ... ومنك ومن زمانك والمكانِ
ولو أني خبأتك في عيوني ... إلى يوم القيامة ما كفاني

فيرد عليها ابن زيدون:

يامن غدوت به في الناس مشتهرا ... قلبي عليك يقاسي الهم والفِكَرا
إن غبتِ لم ألقَ إنسانًا يُؤنّسني ... وإن حضرتِ فكلُّ الناس قد حضرا

وكعادة الأنثى تبدو أبيات ولّادة أكثر اشتعالا وأكثر جرأة وهياما، وليس غريبا عليها ذلك، فهي التي قالت وهي أميرة القصر:

أنا والله أصلح للمعالي ... وأمشي مشيتي وأتيه تيها
أمكّن عاشقي من لثم ثغري ... وأعطي قبلتي من يشتهيها

هذا المشهد يختصر الكثير من الكلام عن هذه المدينة التي كادت تكون لولا عاديات الزمان المدينة المفقودة التي بحثت عنها البشرية منذ آدم وليس إلى آخر سلاطين الأندلس أبي عبدالله الصغير. فقد استطاعت أن تشكل مركبا

متكاملا لثقافة التعدد من ناحية تعايش الأعراق، ومن ناحية فهم النص الديني الذي لا ينغلق في الرؤية الأحادية بل ينطلق نحو سماوات التأويل. ولذلك ازدهرت الفلسفة وحلق الأدب والإبداع عاليا، ولم تُرجم ولّادة لأنها كتبت شعرا يتفتق بالحنين والحب والتوق إلى الآخر، على الرغم من أنها سليلة سلاطين بني أمية. وليس في ذلك من عجب فكتب التاريخ تنقل لنا أن «رسيس» زوجة السلطان عبدالرحمن الناصر كانت تخرج معه وفي مواكبه وهي تلبس قلنسوة وتتقلد سيفا.

بحثت في تلك اللحظة عن نيكولاس والعائلتين الكولومبيتين لأخبرهم عن أجدادي العرب، وكيف تعاملوا مع أصحاب الأرض المفتوحة وكيف تعامل أجداده مع سكان الكاريبي. لكن كلا منهم كان قد اختفى يبحث عن فردوسه المفقود، كما أخذت وزوجتي نبحث عن بقايا رائحة فردوسنا العربي المفقود.

عبرنا إلى داخل المدينة مرورا بين حاراتها الضيقة، وبيوتها التي بدت تحمل أسماء عربية لكنها مكتوبة بحروف لاتينية « فندق الأندلس، ونزل بغداد، وأمية، وابن رشد، والناصر، ومطعم الأندلس». كنت أدفع عربة شهد أمامي عندما نادتني زوجتي لتقول إن أبواب بيوت قرطبة تشبه أبواب الحارة القديمة في قرية شيدة، وإن شجرة النارنج لا تزال تحتفظ باسمها العربي «نارنجا»، وهي نفس الشجرة المنتشرة في الحارات والمزارع العمانية.

قلت لها ليست الأبواب فقط ما يشبهنا، فشكل هذه الحارات الضيقة قريب الشبه من الحارات العمانية القديمة وحارات دمشق وحلب من حيث التصميم الهندسي وكذلك من حيث المساحات الضيقة. على الرغم من أن ابن حوقل

عندما زار المدينة في القرن الرابع الهجري وصفها بفسحة الأسواق، لكن وعينا بالمساحات يبدو أنه يختلف من زمن إلى آخر. فابن حوقل يقول خلال تلك الزيارة التي كانت في خلافة عبدالرحمن الناصر سنة 337هـ: «هي أعظم مدينة بالأندلس، وليس بجميع المغرب لها عندي شبه، ولا بالجزيرة والشام، ومصر، وما يدانيها في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق، ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق». وهي مدينة نظيفة بحق مثلها مثل بقية مدن الأندلس، لكن أسواقها ضيقة جدا، وردهاتها أكثر ضيقا في المساحة، وربما كانت رحابتها التي رآها ابن حوقل معنوية أو أن شكل المدينة قد تغير عبر العصور الطويلة.

***

مرت فتاة تحمل ميراث الأندلس أجمعه بجوارنا، وتحت جدران أجدادنا، ميراثهم الجمالي والفكري والإنساني، وبقايا شموخهم الذي لا يشبه إلا نخيلهم الباسقة. مرت الفتاة فانساب التاريخ أجمعه، شعرا ونثرا وفلسفة وطربا مع إيقاع أوتار زرياب التي غنت:

طابت بطيب لثاتك الأقداح وزها بحمرة خدك التفاح فضياء
وإذا الحناديس ألبست ظلماءها وجهك في الدجى مصباح

على الرغم من أن هدفي كان البحث عن جامع قرطبة الكبير إلا أن هذه الفتاة التي فاحت من جنباتها روائح الأقداح أفقدتني القدرة على قراءة خطوط الخارطة التي اشتريتها عند مدخل المدينة. شعرتْ زوجتي بالربكة التي بدت

عليّ حتى إنني تركت عربة شهد وأخذت أصور على غير هدف معين. كنت أبحث عن «زهو جدودنا» لأقرأ على «جدرانها أمجادي» كما قال نزار قباني في رائعته «غرناطة».

حلفت بأغلظ الأيمان أن ربكتي دليل حزن وحسرة على ما أضاع الأجداد من مجد في هذه المدن العظيمة!!

لا تحتفظ هذه المدينة بشيء من أمجاد العرب إلا ما كان في قصورها وعلى جدرانها، أما المتاحف على قلتها فلا تضم إلا اليسير من فنون المسيحية المتعلقة بالسيدة العذراء وابنها عيسى عليه السلام. أما المسلمون فليس لهم إلا بقايا أطلالهم التي طالما بكوا عليها منذ ما قبل الإسلام.

وإذا كان المؤرخون ينقلون أخبار 3800 مئذنة كانت في قرطبة؛ فليس فيها اليوم إلا مئذنة الجامع الكبير التي تحولت إلى برج للأجراس كما هي حال مآذن الأندلس قاطبة.

وصلنا أخيرا إلى جامع قرطبة الذي دلتنا عليه المئذنة وحدها. حاولنا الدخول إلى الجامع ولكن احتفالات كاثوليكية بعيد القيامة منعتنا من تخطي عتباته الأولى. حاولنا كثيرا الدخول ولكن لم نستطع حتى قيل لنا: ألم تقرؤوا أن الجامع مغلق اليوم؟

ابتسمت وقلت: لم نقرأ!

لكن كان يمكن رؤية أعمدة أحد أعظم الجوامع في العالم الإسلامي من الخارج. هل قلت أعمدة؟ إنها غابة من الأعمدة. هكذا قال دليلنا الذي عاد وصحبنا في رحلة تفصيلية دقيقة للمدينة بعد أن ركضنا فيها شرقا وغربا خلال

ما يقارب الساعتين خوف أن يفوتنا شيء. لكن المرشدين السياحيين هنا لا ينصفون العرب تماما. إنهم يمجدون المنتصر الجديد، وينسون أنه لم يستطع أن يصنع تمازجا ثقافيا كما صنع العرب، فهذا الجامع كان قبل قدوم المسلمين كنيسة، شاطرهم المسلمون إياها ليكون نصفُها مسجدًا ويبقى نصفها الآخر كنيسة، قبل أن يشتري عبدالرحمن الداخل نصف النصارى ويهدمه هو والمسجد القديم ويبني جامعا جديدًا أقرب شكلا إلى الجامع النبوي في المدينة المنورة.

لكن جامع الداخل تطور مع كل سلطان من سلاطين قرطبة حتى وصل إلى أوج أبهته وجماله في عهد عبدالرحمن الناصر، فوصل علو المئذنة ثلاثة وسبعين ذراعا. وفي عهد المنصور بن أبي عامر وصل عدد أعمدة المسجد الباقية إلى اليوم حوالي مائتين وخمسين عمودا وقوسا. وبعد سقوط قرطبة تحول الجامع الكبير إلى كنيسة، ونزعت كل الزخارف والكتابات والفسيفساء التي كانت تكسو الجامع وجرى بيعها. وأنشئت خلف المسجد كنيسة كاملة بمذبحها ومصلاها ومصلبها وخلوات الاعتراف، قبل أن يُنتبَه إلى أن أطلال المسلمين باستطاعتها أن تؤمن لهم أكثر من أربعين مليون سائح في العام، فأعادوا اسم المسجد بجوار الكاتدرائية ليصبح اليوم الجامع الكاتدرائية ولكن لم يبق من المسجد إلا تلك الأعمدة العجيبة والمحراب، وبعض النقوش الإسلامية التي يمكن أن تكون شاهد إثبات على عمق الفجيعة، وعلى أمجاد إسلامية دارسة خذلتها مطامح ملوك الطوائف، و«لا بواكي على جامع قرطبة»، لا بواكي إلا نخلة شامخة حضرت كل الحروب وسمعت الأذان

الأخير من فوق هذه المئذنة. الغريب أن حُرّاس الجامع يشترطون عليك مباشرة عدم الصلاة في الجامع أو بقربه أو حتى الأذان، وهي خطوة جاءت في أعقاب قيام مجموعة من المسلمين بإقامة الصلاة فيه، فاعتقلتهم السلطات وأودعتهم السجن وكتبت يومها عنهم الكثير من صحف العالم. لم يكن هذا الجامع، كما ينقل التاريخ وكما يقول الكثير من المستشرقين، مجرد مكان للصلاة فقط، إنه جامعة أيضا. ينقل عن المستشرق الهولندي رينهارت دوزي (Reinhart Dozy) قوله: «أما جامعة قرطبة، فقد كانت يومئذ من أشهر جامعات العالم، وكان مركزها في المسجد الجامع، وتدرس في حلقاتها مختلف العلوم». بينما يقول المستشرق جوتييه: «لا سبيل إلى وصف التأثر الذي يشعر به المرء عند دخوله هذا المسجد الإسلامي القديم فيتراءى لك أنك تسير في غابة مسقوفة لا في بناء مصنوع، وحيث اتجهت يضيع بصرك في صفوف السواري تلتقي وتمتد على مرمى البصر مثل غراس من المرمر ظهرت من تلقاء نفسها على أديم الأرض»*. وخلف الجامع مباشرة تقع قنطرة قرطبة، أو جسرها فوق الوادي الكبير وقد كانت أبرز معالم المدينة، بل عُدّت في تلك المرحلة من عجائب الدنيا، وهو ما قاله الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: «ولقرطبة القنطرة التي علت القناطر فخرًا في بنائها وإتقانها، وعدد أقواسها سبعة عشر قوسا، بين القوس والقوس خمسون شبرا،

* كتاب «**غابر الأندلس وحاضرها**»، محمد كرد علي، المكتبة الأهلية، مصر، ط1، 1923، ص 104.

وسعة القوس مثل ذلك خمسون شبرا وسعة ظهرها المعبور عليه ثلاثون شبرا»، وعلى النهر أيضا ناعورة تشبه نواعير حماة. وبجوار كل هذا الجمال يقع قصر الإمارة الذي كان يسكنه سلاطين المدينة قبل أن تخبو في ظلام الحقد.

سألت زوجتي عمّا إذا كانت قد أحست أن العائلتين الكولومبيتين قد شعرتا بفرق في القدرة على التعايش الحضاري بين سيدهما السابق وسيد سيدهما؟ فقالت إن ملامح الزوجتين قد أوضحت انطباعا جيدا عن كل تفاصيل المدينة الإسلامية وإنهما بقيتا مبتسمتين على الدوام.

كنا قد بقينا قرابة خمس ساعات في المدينة عندما أخذنا نيكولاس إلى حافة الوادي الكبير لنلتقط صورا تذكارية للمدينة من زاوية تعطينا الكثير من التفاصيل، ويبدو فيها قصر الإمارة شامخا. عاد ابن زيدون مرة أخرى، ليس مع ولّادة هذه المرة، لكن مع أنثى أخرى، مع قرطبة بذاتها وهو يقول:

«سقى جنبات القصر صوبُ الغمائم وغنَّى على الأغصان وُرقُ الحمائم
«بقرطُبةَ» الغراء دار الأكارم بلاد بها شقَّ الشباب تمائمي
وأنجبني قومٌ هناك كرامُ»

لكن شاعرا عربيا معاصرا رأى مشهدا آخر لم يره ابن زيدون؛ فنسمع عبد المنعم الأنصاري، يقول بعد حوالي ألف سنة مما قاله ابن زيدون:

رأيت قرطبة بالقار تغتسلُ رأيت أهدابها بالذل تكتحلُ
رأيتها تحت أمطار الظلام وفي عيونها رغبة خضراء تشتعلُ

القسم الثاني

مهنة المتاعب

سبعة أيام في لندن
هل يتغير شيء بعد التجربة؟*

سؤال كنا نطرحه طوال التجربة التي خضناها (رؤساء الأقسام التحريرية والفنية في صحيفة «عُمان») بعد زيارة نعتقد أنها «جيدة» لمؤسسات إعلامية عريقة في عاصمة الصحافة والثقافة الأوروبية، لندن. وكانت الإجابة المصحوبة بنقاشات جانبية وجماعية أنه لا بد أن يتغير، ولا بد أن يكون لهذه التجربة انعكاس على أداء العمل، وعلى فهم آلية عمل الآخرين ونحن نهم بالمقارنة بيننا وبينهم. ومهمة التجارب في الحياة هي زيادة خبراتنا وصقلها وتكريس الجيد منها.

بالنسبة لي كانت التجربة مهمة جدًّا، بل ضرورية، وكذلك كانت لزملائي الآخرين. ولكي نقف على هذه الأهمية ينبغي أن نستعيد أننا قبل هذه التجربة كنا نجلس يوميا في اجتماع التحرير الصباحي في صحيفة «عُمان» نحاول أن نقيم عملَنا في العدد الذي أصدرناه وصار بين أيادي القراء، ونقارنه بعمل غيرنا طارحين عدة أسئلة من قبيل: كيف تناولنا الخبرَ الفلاني؟ وكيف تناوله غيرنا؟ أين تقدمنا وأين تقدم غيرنا؟، ماذا قدم غيرنا من تفسيرات وتعليلات وكشف لما وراء الخبر وماذا فعلنا نحن؟ إذا كنا قد فعلنا ذلك، فإنه وحده لا يكفي في ظل عدم معرفتنا بآلية العمل التي يتبعها الآخر الذي نضع نفسنا في مواجهته

* نُشر في صحيفة «عُمان» أكتوبر 2015.

يوميا: ماذا لديه؟ وكيف يعمل؟ وما الإمكانيات المتوفرة له وليست لنا؟ أسئلة كثيرة ومداخلات تُطرح في اجتماع التحرير الصباحي الذي تعقده الصحيفة في تمام الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرًا يوميا، وأحيانا في الاجتماع المسائي الذي يعقد في الغالب في السادسة مساء وربما قبل هذا التوقيت. وكانت الفكرة المطروحة أن نذهب ونرى ونسمع من الآخر ونتحاور معه حول الكثير من الأسئلة التي تدور في أذهاننا. وليس جديدا أن الحوار مفتاح للكثير مما نعتقده مغلقا. وفي حالتنا؛ حالة الصحافة أعني، هناك أسرار من الصعب الكشف عنها في حديث مهما كان وديا، وحتى في حالة الرغبة في الكشف فمن الصعب الحديث عنها في الغالب لفظا ولا بد من رؤيتها رأي العين، أي أن ترى ممارستها أمامك؛ فليس من السهل الحديث عن ثقافة غرفة الأخبار، حركة الناس فيها، حواراتهم، أنفاسهم، صمتهم، وانفعالهم، من دون أن تكون معهم.

وطُرحت حينها أسماء عدة عواصم بينها لندن والقاهرة وبيروت، وهي عواصم صحفية دون جدال، لكن لندن كانت في صدارة الترشيحات بوصفها تجربة أهم من غيرها لاعتبارات كثيرة في مقدمتها أن تجربة الصحافة في بريطانيا أكثر عمقا منها في العالم العربي الذي تراجعت فيه المهنية الصحفية كثيرا، وباتت المهنة كما يقول الكثيرون على حافة الهاوية نتيجة لعوامل كثيرة أيضا ليس هنا مكان الحديث عنها.

ومن بين عوامل الميل للندن أن قرابة خمس صحف عربية دولية تصدر منها، وهي صحف تحاول أن تكون قريبة من النموذج البريطاني في الصحافة. صحيح أن الأمر غير متحقق تماما، ولكنه الأقرب ربما إذا ما نظرنا إلى صحف

العالم العربي. كما توجد مراكز عالمية لوكالات الأنباء المعروفة التي نرتبط بها بشكل لحظي في عملنا اليومي. وما شجع على اختيار لندن أن مؤسسة عُمان للصحافة والنشر والإعلان ترتبط بعلاقات صداقة مع مؤسسات إعلامية عربية وعالمية هناك.

وكان الاتفاق أننا نعرف كيف نعمل وكيف تسير دورة العمل اليومية في جريدتنا بدءا من حركة المندوبين والمراسلين في الميدان وانتهاء بحركة المطبعة في آخر المساء، لكن الذي نريد أن نعرفه هو كيف يعمل هذا الآخر الذي ننظر إليه بوصفه متقدما وطليعيا في المهنة. هدفنا إذن أن نقف على عمل مدارس صحفية لها مكانتها طوال أسبوع، نسمع ونرى، نناقش دورة عملهم رأي العين، ونناقش ما هو أعمق من ذلك ممّا يخص السياسات التحريرية ومساحات الحرية التي تدور هذه الصحف في فلكها.

وبدأ رئيس التحرير سيف بن سعود المحروقي (سابقا) برسم جدول للمهمة بالتعاون مع الملحق الإعلامي العماني في لندن عبدالله العبري «سابقا». وتمخض الأمر أن نزور المؤسسات الآتية: صحيفة «الحياة» وصحيفة «الشرق الأوسط» ووكالة رويترز ووكالة «اسوشيتد برس» (AP) والقسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية، في وقت اعتذرت فيه صحف أخرى عن عدم استقبالنا لأسباب خاصة بها.

وما هي إلا أيام معدودة حتى وجدنا أنفسنا في لندن، التي بالإضافة إلى كونها عاصمة من عواصم الإعلام في العالم، هي أيضًا عاصمة من عواصم الثقافة، ومركز من مراكز القرار العالمي، وبدا أننا أمام تجربة مهمة ومسؤولية

كبيرة، فمجلس التحرير في الصحيفة ينتظر منا نقل التجربة ومناقشتها إلى جوار تجربتنا من أجل أن تكتمل الاستفادة، ومن أجل أن نكون على دراية ونحن نضع صحيفتنا في موضع المقارنة يوميا مع بقية الصحف: ماذا لدينا وماذا لديهم؟

- **في رويترز (Reuters) كانت البداية**

لا يمكن أن نقارن عمل وكالات الأنباء بعمل الصحف إلا في مساحات مشتركة قد تقل وتكثر بحسب آلية العمل اليومي، فوكالات الأنباء ينتهي عملها فور بث الخبر عبر الأقمار الاصطناعية والكيبيلات أو عبر الشبكات الحديثة، لكن دورة العمل في الصحيفة تستمر كثيرا بعد مرحلة جاهزية الخبر، وربما تكون أطول من دورة الحصول على الخبر وكتابته.

تعمل وكالة رويترز من ثلاث غرف أخبار: واحدة في سنغافورة، والثانية في لندن، والثالثة في نيويورك. تبدأ دورة العمل في سنغافورة أولا باعتبارها في أقصى الشرق حيث تشرق الشمس قبل لندن، ثم ينتقل العمل إلى غرفة أخبار لندن، ومنها لاحقا إلى نيويورك حيث المقر الرئيس للوكالة. ورغم أن غرفة أخبار رويترز في لندن ليست الأكبر بين صالات التحرير في عالم الصحافة، وليست الأرحب إلا أنك تشعر أن عملا حقيقيا يدور فيها، في كل دورة يوجد أكثر من ثلاثمائة صحفي في صالة التحرير، وكل صحفي همه الأول أن يحصل على سبق صحفي لكن دون الوقوع في فخ الاستعجال، فالدقة كما أكد الجميع في الوكالة أهم من السبق، وكل صحفي همه أن يجيب عن أي سؤال يمكن أن

يثيره قارئ أو متابع أو حتى صحفي في أي صحيفة في العالم تكون مهمته التقاط أخبار الوكالة. والخبر وإن كان الأكثر أهمية ولكنه ليس وحده هَمّ وكالة رويترز التي تبث أخبارها بعشرات اللغات العالمية، فهناك الحوار والتحليل والتقارير التي تفرد لها الوكالة مساحة كبيرة. وفي زاوية من زوايا الوكالة كان يجلس رجل أمام شاشة كمبيوتر وتحيط به عشرات الكتب والمجلات والمراجع والقواميس. بهدوء سألنا: من هذا؟ وجاء الرد: إنه كبير محللي الطاقة لوكالة رويترز. والوكالة لديها غير الصحفيين شبكة كتّاب ومحللين في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والفنية.

ما يميز صالة التحرير في رويترز أنها على الرغم من وجود أكثر من ثلاثمائة صحفي فإنك لا تشعر بوجودهم صوتيا، فالقاعة هادئة تماما ويمكن لأي صوت مهما كان بسيطا أن يخدش الصمت المطبق والانهماك في العمل. هذه ثقافة تكاد تكون مفقودة في العالم العربي، إنه الهدوء الذي ينتج عملا مهنيا يستطيع أن يغطي كل صحف العالم وينال فوق ذلك قصب السبق والتميز.

دارت الأسئلة كثيرة وساخنة مع رئيس التحرير حول السياسة التحريرية التي تحرك صالة التحرير أو غرفة الأخبار كما يسميها البعض، وكذلك حول تجارب يومية مع الوكالة باعتبارها الوكالة الأولى دوليا التي تتعامل معها الصحيفة.

كما تعرّف الوفد الزائر على الخدمات التلفزيونية التي تقدمها الوكالة، ووقف مطولا على الآلية التدقيقية التي تتبعها في التأكد من مقاطع الفيديو التي يصورها في الميدان نشطاء مستقلون وينشرونها على مواقع التواصل

الاجتماعي قبل أن تقوم الوكالة بالاستفادة منها. وقال القائمون على الأمر إن لدى الوكالة حزمة شروط لا بد أن تكون مكتملة حتى يتم استخدام الفيديو المصور من غير مصوري الوكالة، وفي مقدمة تلك الشروط التواصل مع صاحب مقطع الفيديو الحقيقي وسؤاله عن ظروف التصوير وصدقيته، ثم تتأكد الوكالة من خلال برنامج «جوجل إرث» لمطابقة زوايا المكان الذي صور فيه الحدث للمكان الحقيقي.

- **«الحياة» عقيدة وجهاد**

عند باب صحيفة «الحياة» كان الصحفي والكاتب المعروف جورج سمعان، رئيس تحرير صحيفة الحياة السابق وعضو مجلس إدارتها في انتظارنا، ومن هناك إلى قاعة الاجتماعات في جناح مجلس الإدارة. ليدور حوار طويل حول «الحياة» ودورة العمل فيها وسياساتها التحريرية. وجورج سمعان جاء رئيسا لتحرير هذه الصحيفة خلفا لرئيسها الأول في فترة العودة الثانية بعد مرحلة بيروت الكاتب المعروف جهاد الخازن، ثم خلفه في الرئاسة غسان شربل رئيس التحرير الحالي لصحيفة «الحياة»، لكن سمعان بقي من بين أعمدة الصحيفة وأركانها وله مقاله الأسبوعي وهو فوق ذلك عضو مجلس إدارة الصحيفة.

بدا مبنى «الحياة» رغم أناقته وجمال الديكورات المريحة فيه صغيرًا جدًّا، وصالة التحرير الهادئة جدًّا صغيرة أيضًا. كان ذلك غريبًا على البعض منا قبل أن نكتشف أن صالة التحرير مقسمة على عدة عواصم، فبعضها في بيروت

وبعضها في القاهرة والبعض الآخر في السعودية. وعلى الرغم من أن الكنترول النهائي والديسك المركزي للطبعة الدولية موجود في لندن، إلا أن أقساما كاملة مثل القسم الثقافي والقسم الرياضي والقسم العربي موجودة في عواصم أخرى، ومكتب لندن الرئيسي لا يحرر إلا الصفحات الدولية. لكن لندن تبقى الديسك المركزي للصحيفة. قال جورج سمعان إن الطبعة السعودية من الصحيفة تختلف تماما عن الطبعة الدولية في كل شيء تقريبا حتى نوعية الخط. وتحدث بحضور مدير التحرير عن ليبرالية الصحيفة ومحاولتها عرض الرأي والرأي الآخر غير متأثرة بتوجهات المالك الذي لا يتدخل في السياسة التحريرية على الرغم من الشكاوى التي تصل إليه خاصة من داخل السعودية، مستشهدا بالكثير من الأمثلة من أجل تدعيم فكرته. ثم انتقل الحديث عن سلطنة عُمان وموقفها من الحروب الدائرة في المنطقة، خصوصًا أن الصحيفة كانت قد نشرت في ذلك اليوم بالتحديد على صفحتها الأولى تصريح وزير الخارجية اليمني الذي استنكر موقف السلطنة من حرب اليمن، لكن الحق أن حديث سمعان وكذلك حديث مدير تحريره كان منطقيا ومتوازنا حول موقف السلطنة وليس مجاملا أيضا، فقد كتب سمعان مقالًا أوضح فيه ما أوضح حول الموقف العُماني. وقال إن هناك أصواتا في «الحياة» انتقدت الحرب مشيرة بصوت واضح «إلى متى؟».

ثم دار الحديث حول دورة العمل في الصحيفة وآلية التعامل مع تعدد غرف الأخبار. وتمتلك صحيفة «الحياة» دليلا واضحا للأسلوب يعتمده كل المحررين والمراسلين الصحفيين للصحيفة في مختلف بقاع العالم. ودليل

الحياة رغم بساطته إلا أنه مهم يوضح كل التفاصيل التي على الصحفي العامل في الصحيفة الالتزام بها.

- **«الشرق الأوسط»: التجربة الأفضل**

يرى بعض المختصين بالصحافة أن صحيفة «الحياة» تتجاوز «الشرق الأوسط» في المجال المهني وفي مجال صناعة الخبر، لكن الحق أن استفادتنا في «الشرق الأوسط» كانت كبيرة لسبب واحد هو أن هذه الصحيفة تصدر بأكملها من لندن، ولا تملك غرفة أخبار غير غرفة لندن.

كان رئيس تحريرها سلمان الدوسري، وهو شاب يبدو في الأربعينيات في انتظارنا ليأخذنا مباشرة من الاستقبال إلى مكتبه، ويجيب مباشرة عن سؤالنا الأول والأهم: كيف تعمل صحيفة «الشرق الأوسط؟» وكيف تسير دورة عملها اليومية؟

يبدأ اجتماع التحرير اليومي في صحيفة «الشرق الأوسط» في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا، حين يكون المسؤولون عن الملفات العربية والدولية قد تسلموا مقترحات من شبكة المراسلين في مختلف العواصم حول الأحداث التي جرت اليوم، أو المتوقع حدوثها خلال الساعات القادمة من النهار وبدايات الليل. وتجري مناقشة تفاصيل الأخبار وتحديد ما يرقى للنشر والمتابعات المقترحة للأحداث توضيحا وتفسيرا. وتعتمد «الشرق الأوسط» نظام الملفات، فحرب اليمن ملف، وفلسطين ملف، ومصر ملف، والعراق ملف، والخليج ملف، والمغرب العربي ملف، وأوروبا ملف، وهكذا. وتدور

عجلة الأخبار ومعها تدور عجلة المتابعات، حتى تحل الساعة الخامسة والنصف عصرا فيلتقي فيها الجميع مرة أخرى في اجتماع رسم الصفحة الأولى. ويتم اختيار أبرز الأخبار من بين الملفات المطروحة لتكون في تلك الصفحة.

وتحاول «الشرق الأوسط» كما قال رئيس تحريرها ألا تكون عناوينها مباشرة تقدم خبرا، ولكنهم يفضلونها عناوين مشوقة تجذب القارئ وتحثه على القراءة. وهذه النقطة كانت مثار تساؤل لأن عناوين هذه الصحيفة طويلة في العادة، ولا تعتمد نظام العنوان القصير خصوصًا في الصفحات الداخلية. وكان رد رئيس التحرير أن الصحافة العالمية تستخدم الأسلوبين، فهناك صحف بريطانية ما تزال تستخدم عنوانا طويلا على ثمانية أعمدة يمتد لسطرين وليس سطرا واحد حتى. ويتحدث رئيس التحرير سلمان الدوسري عن قدرة الصحيفة على إجراء الحوارات والمتابعات السريعة لأن الأمر مرتبط بالثقة مع القارئ ومع صناع القرار والأحداث في العالمَيْن العربي والغربي. ونفى رئيس تحرير «الشرق الأوسط» أن يكون مُلّاك الصحيفة يسيطرون على توجهاتها وسياساتها التحريرية، وقال: «لا أحد يسيطر علينا»، حتى عندما أشرنا إلى أن الصحيفة تمثل القصر وقريبة جدا من صناع القرار في المملكة العربية السعودية. لكن هذا يبقى رأيه على الرغم من أن هناك آراء كثيرة تقول خلاف ذلك. وكانت صحيفة «الشرق الأوسط» قد أصدرت ملفا كاملا عن الملك الراحل عبد الله بن عبدالعزيز على الرغم من أن خبر وفاته

أعلن في السعودية في وقت متأخر من الليل، وهي الصحيفة الوحيدة ربما التي كتبت عن خبر الوفاة. وعلل رئيس التحرير الأمر بأنه كان في الرياض في ذلك الوقت وبلغه خبر الوفاة من مصدر موثوق وطلب من لندن تأجيل الصدور والاستعداد، وبذلك حصلوا على السبق رغم تأخر وصولهم إلى السوق في ذلك اليوم.

وتجولت مع الزملاء في أرجاء الصحيفة وتابعنا كيف تجري عملية التنفيذ وإخراج الصفحات.

- **هنا لندن (BBC).. وأيضا (AP)**

كانت تجربة زيارة هيئة الإذاعة البريطانية مهمة أيضا رغم أن مجال عملها يكاد يكون مختلفا عن مجال عملنا، لكنها تبقى مدرسة إعلامية، وآلية الحصول على الخبر وتمحيصه وتوثيقه في الصحافة واحدة سواء كانت صحافة مقروءة أو مسموعة أو مرئية.

لا بد أن تشعر بالتهيّب وأنت تتقدم للدخول إلى مبنى الـ (BBC) في شارع متفرع من الشارع الأشهر في لندن وهو شارع أكسفورد، فهيئة الإذاعة البريطانية كانت وما زالت ملكة الإعلام الإذاعي في العالم، وربما تربى الكثير من عشاق الراديو على إذاعة القسم العربي من الهيئة ولازمة «هنا لندن» التي تأتي لاحقة على دقات ساعة «بج بن». التهيُّب يزداد وأنت تطل من علٍ على غرفة الأخبار الضخمة للهيئة التي تمتد على أكثر من طابقين، ويعمل فيها المئات وكأنهم خلية نحل خوف أن يسبقهم منافس

في خبر أو في تحليل. ثم سرنا في جولة في القسم العربي من الهيئة الذي يتداخل فيه الجانبان التلفزيوني والإذاعي، حتى إنّ بعض التقارير باتت مشتركة وكذلك الأخبار.

واستمعنا إلى حديث طويل وتفصيلات حول دورة العمل والتحديات التي تواجه الصحفيين العاملين في الميدان، لا سيّما في مرحلة الحروب.

الأمر نفسه دار في الوكالة الأمريكية «اسوشيتد برس» (Associated Pres) التي تُعرف اختصارًا بـ(AP)، والتي بادرناها بنقل انتقادات الزملاء على طريقة كتابة أخبارها المبثوثة باللغة العربية بركاكة واضحة، وبدا أن القائمين على الأمر يعرفون ذلك تماما، إذ تعتمد النشرة العربية من الوكالة على ترجمة أخبار مكتوبة في الأساس باللغة الإنجليزية، وقد عهدت «الأشوسيتد برس» بأمر الترجمة إلى مكتب في القاهرة يستخدم في ما يبدو برنامج ترجمة «جوجل» وهو ما لم ينفه القائمون على الوكالة. لكن مجال عمل الوكالة الأساس هو الجانب التلفزيوني وإعداد التقارير والأفلام الوثائقية والتجهيزات التلفزيونية سواء من النقل المباشر أو البرامج المسجلة. ويقول القائمون على القناة إن أقصى حد يمكن أن تتأخر فيه كاميرا AP عن الوصول إلى الحدث هو عشر دقائق تقريبا، إذ تتعاون مع الوكالة شبكة مصورين مستقلين منتشرين في كل مكان، وتعتمد عليهم لغاية وصول فريقها التصويري الخاص بها.

- **كانت لندن، وكانت ناجحة**

نستطيع القول بعد أسبوع من التجوال بين وسائل الإعلام العربية والوكالات الدولية في مدينة لندن أن ثمة تجربة آتت ثمارها وعمقت تجربة تستحق أن يتفاعل معها الزملاء ويستفيدوا من جوانب كثيرة منها نظرا لعراقة المؤسسات الإعلامية التي تمت زيارتها، وعمق تجربتها وتقدميتها ونضجها، فضلا عن إمكانياتها البشرية والتقنية.

يوميات صحفي يتابع أخبار كورونا*

لم أعد أحتاج إلى منبه للاستيقاظ صباحا، كوابيس الموت الليلية وروائحه تكفلت بالأمر على أكمل وجه. عند الثامنة أكون قد كنستُ ما بقي من تلك الكوابيس بماء وصابون على أمل ألّا يبقى من فيروساتها شيء عالق للنهار. والماء والصابون صارا هوسًا يوميًّا في حياتنا منذ ظهور فيروس كورونا، رغم طول البقاء في البيت، ولكن ما يدرينا أين يخاتلنا هذا الفيروس اللعين الذي قلب موازين العالم رأسا على عقب، أو أين يستقر على هذه الأسطح التي تُمسح بالديتول طوال الأسبوع قبل أن تُمسح بخطواتنا ونحن ندور في نفس الحلقة يوميا في انتظار فرج السماء.

هذا هو الأسبوع الثاني لي منذ أن بدأت أباشر عملي من البيت، بعد أن أعفت الدولة الموظفين من ضرورة الحضور إلى مقرات أعمالهم إلا للضرورة القصوى حين لا تستطيع التقنية الحديثة إيجاد البديل المتوفر. لم أحتج للذهاب للصحيفة إلا نادرا، على الرغم من أنها على مرمى ربع ساعة بالسيارة مني، وقد مكنتني التقنية من مراجعة مواضيع الصحيفة من البيت، ومتابعة إخراجها. أما اجتماعات التحرير اليومية فتكفلت مجموعة على برنامج «واتس أب» بها، وهذه المجموعة جعلت اجتماع التحرير قائما طوال اليوم. لم يدر في خلد أي مدير تحرير قبل سنوات أنه يمكن أن يعمل دون

* نُشِرَ في صحيفة «عُمان» عدد الاثنين 13 إبريل 2020.

«صالة تحرير» ودون أن يقابل المحررين يوميا ويدخل معهم في نقاشات لا تنتهي، إلا أن هذا يحدث الآن، نعمل في وسط أزمة طارئة، لكنّها تجبرنا، بحكم المنطق، وبحكم القانون أيضا، على ألا نلتقي على الطبيعة على أن نعمل عن بُعد. على الرغم من ذلك يبلي الزملاء بلاء حسنا مع كل الظروف في مسقط التي تحولت إلى نقطة مركزية للوباء في السلطنة، وعلى الرغم من أن ساحة المعركة الحقيقية في غرف العناية المركزة في المستشفيات وهي منطقة خطرة، الاقتراب منها يعني معاودة زيارتها بعد أيام أخرى لكن مريضا لا صحفيا، إلا أن الزملاء يحاولون الاقتراب بالقدر الذي لا يسبب «الاحتراق». وهناك فريق آخر من الزملاء لم تسعفهم التقنية على البقاء بعيدا عن صالة التحرير، وآخرون في الميدان يخاتلون المشهد لتوثيقه بالكلمة والصورة.

لسنوات كنت أعتقد أن العمل من البيت مكسب كبير لأي صحفي مثلي يريد ترميم حياته الأسرية التي تآكلت مع الزمن، بسبب طبيعة عملٍ صحفيٍ يقتضي بقاءً طويلا خارج البيت وبشكل مستمر. لكن تجربة الأسبوعين لا تنبئ بأكثر من غربة جديدة، وأكثر قسوة. أن تكون أكثر غيابا وأنت حاضر في المنزل وسط عائلتك. جعلَتْني ابتناي، ريم وشهد، أذرف دمعًا في غير وقتهِ عندما قرأتُ رسالة كتبتْها ريم طالبة الصف السادس باسمها واسم أختها تقول: «بابا خصِّصْ لنا نصفَ ساعة يوميًّا، فقط، نعيشُ فيها معك حياة عائليّة؛ نلعب ونضحك مع بعضنا بعضًا، بعيدًا عن هاتفك أو لابتوبك». لم أملك دمعتي عندما قرأت الرسالة، ونظرت في عيني ابنتي لأعرف أنّها ليست مجرد رسالة عابرة، ولكنّها حاجة حقيقيّة!

أنْ تكـون صـحفيًّا يعنـي أن تـرهَن كـلَّ وقتـكَ لصـحيفتكَ، ولمتابعاتـكَ المستمرّة، أن تخرجَ صباحًا من البيت وقد ذهبَ أطفالُك إلى المدرسة، ولا تعودَ إلّا بعد منتصف اللّيل عندما يكون أطفالُك قد خلدوا للنَّوم. وفي العمل من البيت الآنَ أنت تقومُ بالأمرِ نفسه. الفرقُ الوحيدُ أنّك سابقًا تبعد عنهم بجسدك بعدَ خروجك من البيت، وفي هذا ما يمكنُ أن يقنعَهم بغيابك، لكنّك الآنَ مرئيٌّ، يراك أطفالُك دون أن يستطيعوا الاستمتاعَ بدفء وجودك. في السابق كنت تحصل على إجازة أسبوعية تعوض فيها بعض الغياب، لكن إجازتك في المشهد الجديد تصبح ترفا غير موجود أبدا، وما يزيد المشهد إيلاما لعائلتك أن أكثر الناس الملتزمين في بيوتهم هم بلا عمل حقيقي، وفي أصعب الظروف يقومون بعمل طفيف، وكأنهم يعيشون إجازة سنوية طويلة، ولذلك يتحدثون عن برامج وفعاليات وأنشطة يفعلونها في البيوت من أجل تمرير الوقت الذي يسير ببطء شديد. لكن هذا غير متاح للصحفيين لأنهم شركاء في المعركة التي تدور في الخارج. وفي الحقيقة فإن توقف الطبعة الورقية، بحكم القانون أيضا*، أضاف أعباء كثيرة على الصحف التي كانت تنتهي دورة عملها بإرسال الصفائح المعدنية إلى المطبعة التي تبدأ عادة في

* أصدرت اللجنة العليا المكلفة ببحث آلية التعامل مع التطورات الناتجة عن انتشار فيروس كورونا في سلطنة عُمان قرارًا بـ«وقف الطباعة الورقية للصحف والمجلات والمنشورات بمختلف أنواعها ومنع تداولها» في السلطنة بدءًا من يوم الاثنين 23 مارس 2020. واستمرّ هذا التوقف حوالي خمسة أشهر، ثم عادت المطبوعات للصدور ورقيًّا بدءًا من يوم الثلاثاء 18 أغسطس 2020، بقرار من اللجنة العُليا أيضًا.

الدوران عند منتصف الليل، ولكن الآن العمل مستمر طوال اليوم بحكم طبيعة الانتقال من الصحافة الورقية إلى الإلكترونية.

حاولت أن أشرح لبناتي أننا نعيش حالة طارئة، وأنني موجود في البيت على الأقل، لكنْ هناك أطباء وممرضون موجودون في ساحة المعركة. تقول ريم: «أين تقع ساحة المعركة؟» قلت لها: «تقع في المستشفيات، وفي غرف الطوارئ وغرف العناية المركزة، وهناك رجال الجيش والشرطة المنتشرون في جميع شوارع عُمان وطرقاتها».

تنظر شهد إليّ قبل أن تقول: «نزين باكر اطلع العب معنا كورة في الحوش». أقول لها: «حاضر».

***

بعد أن كنست آخر صور الموت التي تراءت لي في كوابيس الليل، فكرت أن عليّ التأكد ما إذا كان وزني قد زاد رغم رحلة البحث المضنية عن إنقاصه. العزلة تفرض المزيد من الأكل، ولم أستطع بناء تصور يربط بين كثرة الأكل وعزلة كورونا الجبرية هذه، غير أن وسائل التواصل الاجتماعي قد كرست الفكرة، فهي تعجّ بالكثير من الصور لطبخات جميلة ومغرية تتفنن في إعداداها الأسر؛ في محاولة، ربما، لكسر رتابة المشهد وتمرير الوقت الصعب. وعموما هذه من سخرية القدر أنْ نجابه الخوف من الموت اختناقا بمزيد من الأكل. تأكد لي الآن أن المطبخ هو أكثر مكان ألتقي فيه بعائلتي، نبتسم لبعضنا البعض ونضحك وكل منا يحمل صحنه ويمضي إذا لم يكن وقت اجتماع على غداء أو عشاء.

أبحث في وكالات الأنباء التي صرت أستقبلها على حاسوبي الشخصي وأنا أجلس في مكتبي في البيت، عن خبر غير خبر الموت وصراع الطواقم الطبية وغرف العناية المركزة فلا أجد. لا أحد يكتب إلا عن الموت، ولا أحد يحصي إلا ضحاياه؛ فنحن لا نكتب إلا ما يسكننا، وكل من على وجه الأرض اليوم مسكونون بالموت والخوف من مجيئه فجأة في غير أوانه. أكثر من مائة ألف من البشر فاجأهم الموت* بينما كانوا يحلمون بسنة مختلفة تنضج فيها الأحلام دون أن تسقط أوراقها على قارعة الوباء.

لم أعش أحداث الحرب العالمية الثانية إلا عبر الكتب والأفلام السينمائية، لكن ما يمر به العالم اليوم هو حرب عالمية ثالثة حقيقية. حرب لها جنودها الذين يعرفون عدوهم دون أن يروه، ومكنهم العلم من بناء مؤشر إحصائي لقتلى السقوط اليومي، ولكن ذلك العلم نفسه لم يسعفهم حتى الآن في اكتشاف ترياق يوقف هذا الفناء الجماعي للبشرية.

أخبار وكالات الأنباء مفزعة جدا، هذه إحصائية أمامي عن عدد الوفيات في الولايات المتحدة خلال الساعات الأربع والعشرين الأخيرة،

* تضاعف هذا الرقم أضعافًا كثيرة بمرور الأيام والأسابيع والشهور، حتى صار عدد الموتى بالملايين.

يا رب السماء! العدد تجاوز ألفي حالة وفاة*. بالمنظور الصحفي الذي عليّ أن أمارسه الآن هذا خبر مهم، ولا بد أن يبث على موقع الصحيفة فورا، وعبر منصاتها في وسائل التواصل الاجتماعي، لكن على المستوى الشعوري والإنساني هذا خبر مؤلم جدا ومخيف. هذا فناء بشري، وانتحار جماعي للجنس البشري. أعد الخبر للنشر بينما تسري رعشة في جسدي وأحاول أن أبحث عن صورة مناسبة له. أأختار صورة وكالة الأنباء الفرنسية التي تُظهر مئات الجثث وقد تناثرت في مستودع لمستشفى في نيويورك؟ إنها صورة مؤلمة ونشرها قد يخدش مشاعر الكثيرين، على الرغم من كونها صورة صحفية تعبر عن حجم المأساة الحقيقي، أم أختار صورة أخرى جاءت عبر وكالة رويترز لمسن وُضِع على سرير بعد إنزاله من سيارة الإسعاف في طريقه لطوارئ مستشفى في منهاتن الأمريكية، وتبدو يده ممدودة بكثير من الرجاء للمسعف وكأنه يقول له: «أرجوك لا أريد الموت الآن فلم أودع أحبابي؟» أم أختار صورة أخرى تخبئ فيها فتاة عشرينية رأسها بين ركبتيها بعد أن يئست من المشهد السريالي وهي تجلس قبالة مستشفى دخل إليه والدها. يعقب هذا إحصائية جديدة من إيطاليا، وأخرى من إسبانيا، ثم إحصائية جماعية للأرواح التي حصدها الوباء في العالم أجمع.

---

*كان هذا الرقم كبيرًا وقت كتابة اليومية، ثم تضاعف بمرور الوقت، إذ إن جامعة جونز هوبكنز، وهي المرجعية اليومية في إحصاء إصابات ووفيات كورونا في الولايات المتحدة، سجلت يوم الأربعاء 30 ديسمبر 2020 أكثر من ثلاثة آلاف وتسعمائة وفاة.

هذه معاناة أخرى. وكالات الأنباء تنقل لك بالصورة والكلمة كل معاناة العالم، فجائعه وويلاته في هذا المنعطف التاريخي، وأنت عليك أن تعيش كل هذه المآسي قراءة ونظرا، ثم عليك أن تختار!

عند الساعة العاشرة من كل يوم تصل الإحصائية المحلية للمصابين بالفيروس في عُمان، وهي وإن كان عددها ما زال محدودا مقارنة بمؤشرات في العالم ترتفع كل يوم بالآلاف، إلا أن دراستها باعتبارها منحنيات رياضية تكشف عن خوف كبير جدا. هذا المنحنى يرتفع كل يوم، ويتضاعف في أيام محدودة جدا على الرغم من كل الجهود التي تبذل، وعلى الرغم كذلك من أن البلد كلها مغلقة تقريبا. ورغم عزل المحافظات عن بعضها البعض.

أستعد لحضور مؤتمر صحفي لوزير الصحة يعقده عبر تطبيق «زوم» العالمي. هذه تجربة جديدة، يتحدث الوزير عن منحنى وبائي أعدته وزارة الصحة يَفترض أن نصل مع نهاية شهر أبريل إلى ذروة الوباء في السلطنة، وعند تلك النقطة يمكن أن نسجل كل يوم 64 وفاة*، يصعقني الرقم فهذا رقم لا نستطيع تحمله في شهر في عمان فكيف في يوم واحد، يقول الوزير: «لا بد أن نتحدث بشفافية، وهذه أرقام ومنحنيات أوجدها علم الرياضيات ولكن نتمنى ألا نصل إليها إذا ما تحقق التباعد الاجتماعي». كيف يمكن أن أنقل هذه

* بلغت ذروة الوفيات اليومية في سلطنة عمان يوم 1 يوليو 2021، حيث سجل في ذلك اليوم 50 حالة وفاة.

المعلومة، أشعر الآن أن يدي ترتجف وأنا أكتب الرقم. رائحة الموت التي تغطي العالم لن تستثنينا، إنها قادمة وعلينا أن نستعد لها.

تصل الأخبار من كل الولايات والمحافظات وتصب أمامي الآن، وعليّ أن أراجعها وأمرر ما يمكن نشره، واستبعد الأخبار التي لا ترقى للنشر. المهمة الأصعب الآن هي أن تتأكد من دقة المعلومات قبل نشرها، كل معلومة غير صحيحة يمكن أن تقود إلى كارثة. وفي الأزمات تجد الإشاعة مكانا مثاليا لها.

أعود لاجتماع التحرير الذي لا ينتهي على «واتس أب»، أناقش مع الزملاء أفكارا لمواضيع يمكن تنفيذها، بعضها عاجل وبعضها قابل للاشتغال على مهل. لكن الأخبار في بلادنا لا تولد بسهولة حتى في الأزمات، إيقاع ولادتها بطيء جدا. الناس هنا لا يتحدثون كثيرا، والكثير من القصص الصحفية يقتلها التحفظ سواء من الأفراد أو من مؤسساتهم عندما يتحدثون باسمها.

قبيل المغرب تستدرجني ابنتي شهد إلى الخارج لأتفاجأ بأن عليّ أن ألعب معها وأخواتها لعبة «عنبر»، أتذكر هذه اللعبة التي كنا نلعبها صباحا قبل أن نركب الباص إلى المدرسة. وكنت أعتقد أنها انتهت وانقرضت في زمن الآيباد، لكن يبدو أن العزل المنزلي سيعيد الماضي لكن في سياق آخر. يقطع صوت أذان المغرب فسحة شهد التي فرحت بها. أما أنا فأجد عدة أخبار قد تراكمت وعليّ مراجعتها، رغم أن زملاء آخرين ينضمون لمراجعة الأخبار في هذا التوقيت. يستمر المشهد مع أخبار الوباء

وضحاياه حتى منتصف الليل. وهو الوقت الذي أعود فيه ثانية لمعركة أخرى مع كوابيس الموت وروائحه التي لا تنتهي حتى أغسلها في الصباح بالماء والصابون. قبل أن أغمض عيني أتذكر شهد وريم وسحر ووسن، أتذكر النصف ساعة فقط التي تحتاجها ريم كل يوم، أتذكر الكتاب الذي لم أتجاوز نصفه منذ أكثر من شهر، أتذكر الكثير من المشاريع الكتابية التي عليّ أن أنجزها.

فهرس المحتويات

مقدمة 5

القسم الأول

نهارات الأنس

يوميات في القاهرة..

أماكن نجيب محفوظ والبحث عن هيكل وانطفاء ميدان التحرير 9

منتصف الليل في باريس..

استذكارا للحرب وتشردا في الشوارع بحثا عن قمر مفقود 20

من تفاصيل الحمراء إلى جنات العريف..

بذخ القصور وعظمة الهندسة المعمارية الإسلامية 31

قرطبة في القلب..

قصة عناق ابن زيدون لولّادة اللهفة.. التي لا تكتمل رغم الحنين 45

القسم الثاني

مهنة المتاعب

سبعة أيام في لندن: هل يتغير شيء بعد تجربة لندن؟ 57

يوميات صحفي يتابع أخبار كورونا 69